سلسلة ثقافة الحياة





كيف تتربع على القمة؟



تأليف:

هادي المدرسي



كيف تتربع على القمة ؟

سلسلة ثقافة الحياة

3

كيف تتربع على القمة ؟

تأليف:
هادي المدرسي



الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧ م



المكتب : حارة حريك - شارع السيد عباس الموسوي - تلفاكس : 01/545182 - 03/473919
ص . ب : 13/6080 - المستودع : بئر العبد - مقابل البنك اللبناني الفرنسي - هاتف : 01/541650
www.daraloloum.com E-mail:info@daraloloum.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾

ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾

مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾

صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

* * *

قيمة الماضي أن يكون شمعةً في طريق بناء المستقبل.

وقيمة المستقبل أن يحقق لنا الأماني التي كنّا نحلم بها في الماضي.

والوسيلة التي يمكنها أن تحوّل ماضينا إلى شموع لمستقبلنا هي الثقافة الواعدة التي لا تشذّ عن الجذور من جهة، ولا تتوقف عند واقعنا من جهة أخرى.

وهذا الكتاب الذي بين يديك، هو محاولة في هذا الطريق..

فهو إذ يبدأ من موضوعات ترتبط بالنفس، لتنتهي بموضوعات ترتبط بالعلاقة مع ربّ العباد، فإنّه يحاول أن يعلّم القارئ كيف يستخرج الكنوز المودَعة فيه، وكيف يتعامل مع الناس الذين حوله، وكيف يضمن لنفسه النجاح في أعماله، ويسابق الزمن في طريقه؟..

وفي الحقيقة فإنّ كل رحلة ناجحة لابدّ أن تبدأ من الذات، لتنتهي إلى العروج إلى المعالي والفضائل.

فرأسمال الإنسان في الدرجة الأُولى هو نفسه، ولكنّه لا يمكن أن يكون هدف نفسه، وإلّا لفقد قيمته.

تماماً كما هو شأن أيّ شيء آخر في الحياة، فالماء له قيمته بمقدار ما يروي الأرض والنبات والإنسان، وبذلك فنحن نقيّمه بالقياس إلى غيره، وكذلك فإن كل ما في الحياة إنّما له القيمة بمقدار ما يخدم غيره.

ولأنّ الإنسان هو قمّة مخلوقات الله تعالى، فإن قيمة أشياء الحياة هي بمقدار ما تخدم الإنسان.

أما الإنسان فقيمته بمقدار ما يستخدم ما عنده من النعم لخدمة عباد الله، وعمارة الأرض، وبناء الحضارة.

ولذلك جاء في الحديث الشريف: «خَلقتُ الأشياء لأجلك، وخلقتُك لأجلي».

فالأشياء قيمتها في أن تكون للإنسان، أما الإنسان فقيمته في أن يكون لله.

تلك هي القضايا التي يتناولها هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة.

وفي الختام، فإنني أرجو من الله تعالى أن يسدد خطانا في هذا الطريق، ويوفقنا لمراضيه، إنه نعم المولى ونعم النصير.

هادي المدرّسي



أنت عملاق هذه الحياة..

هل أنت مجرد ذرّة غبار تسبح في الفضاء، أو مجرد قطرة ماء في مياه البحر، أو مجرد ورقة يابسة من أوراق الغابة؟..

لو كان كذلك، لما خلقك الله بإرادة خاصّة منه، ولما أودع فيك طاقات هائلة، ولا أرسل لك رسله العظام، ولا أنزل إليك كتبه المقدّسة، ولا سخّر لك الأرض والسماء، والماء والهواء..

إنّ الكون كلّه انطوى في وجودك، وطوَّع الله لك كل قدرات الحياة، وقال عنك أميرالمؤمنين عليه السلام:

أتزعمُ أنك جِرمٌ صغير وفيك انطوى العالَمُ الأكبرُ؟

ولكن ذلك لا يعني أنك كبير بطبيعتك، سواء قمت بأعمال كبيرة، أو لم تقم بمثل ذلك؟

وسواء استثمرت طاقاتك أو لم تستثمر؟

فما أودع الله في ذاتك من طاقات، وما أوجد لك في الكون من قوى هي مجرد خامات، ومن دون أن تستخدم تلك الخامات، لبناء ما ينفعك وينفع الناس، فإنّك تبقى مجرّد خامة مهملة، وهذا يعني أن الإنسان ليس عظيماً كيفما كان، بل هو عظيم إن كان له هدف عظيم، وعمل عظيم، وإنجاز عظيم.

أنت كل ما في هذا الكون إن كنت بالفعل ممن يعرف ربّ الكون، ويعمل لما أمر به، وإلّا فلا قيمة لك.

وهكذا فإنّ الأمر يعود إليك. فأنت الذي تختار بأن يكون لك دور عظيم وموقع أعظم. أو تكون أقل من ذرّة غبار في الفضاء، أو قطرة ماء في البحر، أو ورقة يابسة في الغابة.

فالإنسان عظيم عندما يؤدّي دوراً بحجم الطاقات التي أودعها الله فيه.

فالحياة في خدمة أولئك الذين يعملون فيها ويبنونها، ولكنها لا تعطي نفسها للخاملين الكسالى الذين لا يألفون، ولا ينتجون ولا يعملون، ويبحثون عن التوافه وليس عن المعالي، ويعيشون في زوائل الشهوات وليس في مواقع الحياة.

يقول الإمام علي عليه السلام: «إن النفس لجوهرة ثمينة من صانها رفعها، ومن ابتذلها وضعها»[1].

فمن يصون نفسه يرفعها، ومن يتركها ملتصقة بالتّوافه فهو يضعها. وهكذا فإن الإنسان إذا عرف نفسه أدرك القدرة الكامنة في وجوده. فيا ترى هل نعرف أنفسنا؟

إن كل المعلومات التي تنهال علينا يومياً تبقى عاجزة عن التعريف بحقيقة الإنسان، فبالرغم من أن الجميع

---

(١) غرر الحكم، ج ٢، ص ٥٢٢.

يظنّون أنهم باتوا يعرفون أنفسهم، إلّا أن الإنسان يبقى هو المجهول الأكبر في هذا الكون. وفيما يلي نشير إلى ثلاث مجالات نحن بحاجة إلى سبر أغوارها لمعرفتها فيما يرتبط بأنفسنا.

أولاً: مجال النفس.

فالعلم الحديث في بعض فتراته تجاوز بحث قضية النفس، ظناً من العلماء الماديّين بأن الإنسان ليس إلّا هذا الجسد ولا شيء وراء ذلك. وحينما وجدوا أن الجسد وحده لا يمكن أن يجيب على كل تساؤلاتهم العلمية، قالوا بأن اهتزازات الجسد تحدث طاقة غير مرئية، وإن تلك هي النفس.

ثم بعد مواجهة الحقائق اعترفوا بوجود للنفس البشرية، لكن العلم لا يزال في ألف باء معرفة النفس. أما فيما يرتبط بالروح فإنها تبقى منطقة مجهولة إلى أن يشاء الله، لأن الروح من أمور الآخرة، وستبقى أمور

الآخرة مجهولة علينا حتى نرد إليها. وإلى ذلك يشير ربنا تعالى في كتابه الكريم بقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[1].

ثانياً: منطقة التحكم بالعادات والتقاليد.

إننا لازلنا نجهل أنفسنا فيما يرتبط بضبط أفعالنا الصادرة عن العقل الباطن الذي يصدر أوامره بحكم العادة والتطبع. فكم من مرة يصمم أحدنا على شيء جديد يتعلق بنفسه، وتصرفاته أو يتعلق بالآخرين... ثم يجد نفسه يكرّر خلاف ذلك من دون إرادة منه؟

فكيف يتم ذلك؟ ولماذا؟

وكيف يمكننا تغيير هذا الأمر؟

إن هذه من المجالات التي يجب أن نتعرّف عليها، ونحاول التأثير فيها فيما يرتبط بأنفسنا.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

ثالثاً: مجال القدرة على التحكم بأجسامنا.

صحيح أن الطب الحديث يتقدم إلى الأمام بقفزات سريعة، إلّا أنه يقف عاجزاً في أحيان كثرة أمام (فيروس) مرضٍ معيّن، أو أمام خليّة متمردة، مما يكشف عن أن الإنسان عاجز في التحكم باختلالات الجسد، كما هو عاجز في التحكم فيما يرتبط بنفسه وروحه، فالمعرفة الجسدية هي الأخرى لم تتكامل لحد الآن، وإذا أخذنا بعين الاعتبار جهل الإنسان بعالَم النفس وعالَم الروح، وأضفنا ذلك إلى جهله بعالَم الجسد، يتبين لنا أنّ كلّ ما تتحقق به إنسانية الإنسان لا تزال مجهولة على الناس.

لقد أكَّد المفكر المعروف «الكسيس كاريل» في كتابه (الإنسان ذلك المجهول) على حقيقة قصور المعرفة البشرية حيال ما يرتبط بالإنسان. وقد حاز على جائزة نوبل في الأدب، وكانت تلك أول مرة تمنح فيها الجائزة لشخص يتظاهر بالجهل وليس بالعلم، أي يعترف بالمجهولات وليس بالمعلومات. وفي الواقع إن نقطة

المزج بين الروح والجسد.هي نقطة الجهل الرئيسية بالنسبة إلينا.

يقول ربّنا عزّ من قائل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾[1].

فإدراك هذه «النطفة الأمشاج» باعتبارها خليطاً من الخير والشر، هو ما ينقصنا والذي لابدّ من تركيز الجهود عليه. وهذا يعني أنّ أيّ فهم منفرد للجسد لن يكفي لفهم حقيقة الإنسان، بل لابدّ من معرفة نقطة المزج ما بين الجسد والروح، أي نقطة التلاقي بين عالَم الدنيا وعالَم الآخرة، وهي منطقة التقاطع في حياتنا التي نعيشها في هذه الدنيا.

ويبدو أنّ هذه النقطة بالذات قد تم إهمالها من قبل العلماء الماديّين لأنهم أساساً يحاولون دائماً التنكر لحقيقة الروح، وما يرتبط بالعالم الآخر.

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ٢.

وبعد تحديد هذه المراكز الثلاث الرئيسية التي يجهلها الإنسان، لابدّ من العودة إلى السؤال الذي طُرح في البداية وهو: من أنت؟

وقبل الإجابة عليه لابدّ من التذكير بأن هذا السؤال ظل يتردّد على لسان الناس منذ أول إنسان، وسيبقى يتردد على ألسنتهم إلى آخر إنسان، لأن المنطقة مجهولة جداً وهي منطقة النفس البشرية، كما أنها واسعة جداً فكلّما توغّلنا فيها كلّما وجدنا آفاقاً جديدة لابدّ من سبرها. وسوف نكتفي هنا بالإجابة على سؤال: ما هي النفس؟

والجواب: إذا كان العقل هو ذلك الشيء الذي يميّز الإنسانُ به الخير من الشّر، والصلاح من الفساد، والحق من الباطل، والظلمة من النور، والإيمان من الكفر، فإن الروح هي تلك القوة الخفية التي تبعث الحياة في نفس الإنسان. والجسد هو مجموعة الأعضاء والأجهزة والأدوات التي تنظّم عمليات بناء الجسم

وحفظ حيويته لاستخدام الروح لها من أجل الارتباط بعالَم الدنيا.

أما النفس فهي عبارة عن قوّة تتمركز فيها وتنبع منها كافة الميول والشهوات في الإنسان، مثل الحب والكره، والجبن والشجاعة وما أشبه..

فأنت تخشى الظلام لأن نفسك تهيج في السواد الحالك، وأنت أيضاً تخشى من جثّة هامدة، مع علمك بأنّها لا تحرِّك ساكناً ولا تستطيع أن تضرّك ولو بمقدار نملة لأنّ نفسك تهيج هنا أيضاً..

وهذا الخوف يأتيك بالرغم من أنّ عقلك يقول لك: لا يجوز الخوف من الظلام، كما لا يجوز الخوف من جسد لا روح فيه، إلّا أن النفس تبقى خائفة وهائجة ومُشفقة من الظلمة ومن الجثّة..

وقد يتصوّر البعض أن العلم يمكنه أن يحل لنا المشكلة، وذلك عن طريق وضع قواعد لتنظيم عملية التفكير.

إلّا أنّ الواقع يكشف عن إنّ المشكلة هي نفسية، قبل أن تكون عقلية.

ومن ثَمَّ فنحن بحاجة إلى معالجة النفس البشرية، ومعرفة الداء والدواء قبل أن نضع القواعد للعقل وتنظيم الفكر.

إنّ كثيراً من الآيات القرآنية الكريمة جاءت لتعالج مشاكل النفس الأمّارة بالسوء، لأنّ بناء النفس هو منطلق التغيير الشامل للفرد وللأمة، ونقطة التحول في المجتمعات. فصحة النفس هي التي تضمن للإنسان حريته وكرامته. ولقد اهتمّ الرسول الأعظمﷺ بتزكية نفوس أصحابه، أكثر من اهتمامه بالجوانب العلمية فيهم.

فقاد النفوس إلى الأفضل والأكمل قبل أن يقودهم إلى معرفة المجهولات في الحياة.

يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ

﴿وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾[1].

فقدمت الآية (التزكية) على (التعليم) لأن هدف التعليم في النهاية هو التزكية، ولا قيمة للتعليم إن لم ترافقه التزكية.

وكانت تلك مهمة الأنبياء على مرّ التاريخ.. إنهم كانوا يُبعثون لتهذيب النفوس وتزكيتها، ولم تكن مهمتهم أن يُعلّموهم القراءة والكتابة، والهندسة والطب وما شابه ذلك، وإن كان التقدم في هذه المجالات نتيجة طبيعية للنهضة التي يفجرُها الأنبياء.

فتزكية النفس هي الخطوة الأُولى لمواجهة كلّ المشاكل، ومن هنا فإن أكبر هزيمة يمكن أن يتلقاها فرد أو جماعة هي هزيمة النفس، كما أنّ أوّل سلاح وأخطره هو سلاح يؤدي إلى أن تنهزم الأمة نفسياً.

ألا ترى كيف أن الحرب النفسية أخطر على الأمم

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٢.

من الحرب الجرثومية، حيث أن الحرب النفسية لا تفتك بعدد من الأفراد فقط.. وإنما تقتل الملايين من النفوس، وربما تترك أثرها على الأجيال.

وقد يتم كل ذلك من دون أن يحسَّ أحدٌ أو يشعر بخطورة ما يحدث، بالإضافة إلى أنّ الحرب الجرثومية يمكن إتقاؤها بالكمّامات الواقية، أما الحرب النفسية فلا توجد لها كمّامات.

ولقد علم الخبراء العسكريّون بأن الحرب النفسية تُنزل الهزيمة بأقوى الجيوش قبل أن تخوض القتال، وهو ما حصل في كثير من الحروب في التاريخ.

ولهذا كلّه لابدّ من بناء النفوس على العزة والكرامة، حتى لا تنهزم أمام المشاكل والأزمات ولا تنهار في مواجهة أساطيل الشر، ووسوسات الشيطان، ورغبات الجسد.

إن النصر والنجاح والسعادة تتطلّب شُحنةً هائلة من

الشعور بالكرامة، وإحساساً متدفقاً بالعزة، وقدرةً على مواجهة الشهوات والرغبات، وكل ما يدفع الإنسان إلى الإخلاد إلى الأرض والتّرسّب في مستنقعاتها.

إنّ كل إنسان يملك في داخله قوى هائلة لا يستطيع أن يستفيد منها إلّا إذا كان يمتلك نفساً سليمة زاكية. فتزكية النفس هي الخطوة الأُولى والضرورية التي بدونها لا يمكننا أن نفعل شيئاً في هذه الحياة.

نَمِّ عقلَك ليزداد جمالُك

(جمالُ الرجال في عقولهم، وعقولُ النساء في جمالهنّ).

تلك هي إحدى الحِكَم التي ورثناها من أئمة أهل البيت عليهم السلام، فجمال الرجل ليس حتماً بمظهره، وملبسه، وملامح وجهه، ولون بشرته، وطوله، ووزنه..

وإنما جماله بمقدار معرفته، وعلمه، وإبداعاته. فالتقييم الصحيح للرجال لا يأخذ مظاهرهم الجميلة بعين الاعتبار، فكم من أحمق جميل المنظر ليست له قيمة عند أحد؟

وكم ممن ليست في سحنته أية سحنة من الجمال،

ولكن الناس يعشقونه ويحبونه نظراً لمواقفه الحكيمة وعلمه الجمّ. وحتى المرأة فإنها لا تقيّم الرجل على أساس مقدار جماله الظاهر.. فكم من النساء تعلّقن برجل ليس لكونه جميلاً في المظهر، ولا أنيقاً في الملبس، بل لأنه بطل يحقق إنجازاتٍ عظيمة، في مجالات الحياة المختلفة.

من هنا فإن الاهتمام الشديد بالملبس عند الرجل ليس إلّا دليلاً على قلة جماله الحقيقي.

وبالطبع فأنا لا أدعو أن يخرج الرجال إلى الشوارع من غير أن يهتموا بما يلبسون، فالله تعالى «يبغض البؤس والتباؤس»[1] كما يقول الحديث الشريف. فالأناقة بقدر معقول مطلوبة للرجل والمرأة على حد سواء «فالله جميل يحب الجمال»[2]. و«النظافة من الإيمان»[3] إلّا أن

---

(١) الكافي، ج ٦، ص ٤٤٤، باب كراهية الشهرة.

(٢) الكافي، ج ٦، ص ٤٣٨، باب التجمل.

(٣) مستدرك الوسائل، ج ١٦، ص ٣١٩، باب ٩٢.

الإفراط في الاهتمام بالمظهر على حساب العقل والعلم يؤدي إلى تفريط في الاهتمام بالقضايا العقلية والعلمية، التي هي الأساس في إنسانية الإنسان.

هذا غاندي ـ الذي يعتبر من عظماء عصره ـ لم يكن ليهتمَّ بمظهره إلّا بمقدار ما يستر به بدنه الضعيف. ولم يمنع ذلك من تعلق الملايين به، بل مات الكثيرون منهم دفاعاً عن آرائه، وكان البعض يستهزئ به لتصرفه ذلك، ولكنه لم يكن يرى جمالاً إلّا في العقل والإرادة والعزيمة التي كان يتميز بها.

ولدى زيارة غاندي للعاصمة البريطانية، كان الجميع ينتظر ليرى ما سيرتديه الرجل عند لقائه الملك في قصره. وأخيراً ظهر غاندي في القصر الملكي البريطاني، وهو يرتدي لباسه التقليدي البسيط، بينما ظهر الملك جورج الخامس في استقباله وقد لبس حلته الملكية، وعشرات الأوسمة تتدلى منها.

وبعد انتهاء الوليمة التي رتّبها الملك لغاندي، سأل أحد الصحفيين محرر الهند عن ثوبه ذاك والفرق بينه وبين بزّة الملك؟ فأجاب ـ والبسمة تعلو شفتيه - : «إن الملك قد لبس تلك الملابس الفخمة نيابة عني وعن نفسه».

وهكذا فإن بساطة غاندي في ملبسه، لم تقلّل من جماله وقيمته، كما أن ملابس الملك جورج الخامس لم تزده أبّهة وجلالاً.

ولعلّه لا يليق بالرجال العظام إلّا ملابس بسيطة، لأن الاهتمام الكثير بالملبس دليل خفّة العقل، وإهمال التعقل.

يقول رسول الله ﷺ: «إنما يُدرك الخير كلّه بالعقل، ولا دين لمن لا عقل له»[1].

ويقول الإمام الكاظم عليه السلام: «يا هشام! إن لله على

---

(١) تحف العقول، ص ٤٤.

الناس حجتين: حجة ظاهرة، وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام، وأما الباطنة فالعقول»[1].

وهكذا فإنّ العقل هو الأساس، واستثارته هي مهمة الرجال الكبار، وبه يدرك الإنسان منابع الخير ويحصل على الثواب على تديّنه.

لقد ذهب موسى بن عمران عليه السلام ذات مرة إلى جزيرة، فرأى فيها راهباً يعبد الله، وعلامات الزهد بادية عليه، فسأله موسى: «منذ كم سنة لك وأنت تعبد الله في هذا المكان»؟

فقال العابد: «منذ مدة طويلة». فأراد موسى عليه السلام أن يعرف ثواب عبادته، فسأل الله عن ذلك، ولما أخبره ربّه تعجّب من قلة ما يحصل الرجل على الثواب مع تلك العبادة الطويلة.

فسأل ربّه عن السبب؟

---

(١) تحف العقول، ص ٣١٥.

فأوحى الله تعالى إليه أن: سله عن حاجته لتعرف.

وعندما مرّ موسى عليه السلام على العابد سأله: هل لك من حاجة؟

قال: «نعم، حاجتي أن يُنزل الله حماره إلى هذه الأرض، ليأكل هذا العشب النابت في الصحراء».

فعرف موسى عليه السلام أن الله إنما يثيب العباد على قدر عقولهم.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «العقل دليل المؤمن»[1].

وقد مدح بعضهم رجلاً أمام الإمام الصادق عليه السلام لعبادته ودينه، فقال له الإمام عليه السلام: كيف عقله؟

قال الراوي: لا أدري.

فقال الإمام عليه السلام: «إن الثواب على قدر العقل»[2].

ويقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن العبد ليصلّي الصلاة لا يكتب

---

(١) الكافي، ج ١، ص ٢٥.

(٢) الكافي، ج ١، ص ١٢.

له سدسها ولا عشرها، وإنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها»[1].

أي إن الله عزّ وجلّ يثيب بمقدار العقل في العبادات وليس بمقدار حجمها.

* * *

ثم إن العقل كالنبات يكون واهناً وخمولاً عند الولادة، كما النبتة التي تتهاوى عند بدايتها، وهو مثلها بحاجة إلى تغذية، وتغذية العقل بالتفكر، ذلك أن كل إنسان يولد ومعه عقل صغير كما هو الأمر بالنسبة إلى الطفل، فإذا توفّرت له تغذية سليمة بالتعليم والتربية والتفكر نما عقله وازدهر، وإلّا بقي في حدوده الأُولى: مجرد بذرة صغيرة.

فلابدّ أن تغذّي العقل بالتفكير، وتنمّيه بالتعلّم، وتنشّطه بالحوار، وتلقّحه بالمطالعة.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٨٤، ص ٢٤٩.

فالعقل مثل جهاز كمبيوتر عظيم قد وضع الخالق برامجه بحكمة عالية. ويبقى على الإنسان أن يخزِّن فيه الأفكار الصحيحة، والرؤى الصائبة، والتصورات المعقولة حتى يستفيد منه. وكما أن جهاز الكمبيوتر لا يعطي نتيجة، من دون تغذيته بالمعلومات، كذلك العقل لا يثمر من دون تغذيته بالمعرفة.

والعقل الفطري الذي يولد مع ولادة الإنسان هو الآخر قد لا يستفيد منه صاحبه، لأن فطرته قد تحجبها الحجب المختلفة التي ترين عليها.

فمن يغذّي عقله أكثر، يكون بالطبع أفضل من غيره. ومن يترك عقله ولم يغذّه، ولم ينهض بفطرته، فهو يميل ذات اليمين وذات الشمال، ويكون القسم الثالث الذي قال عنه أميرالمؤمنين عليه السلام: «الناس ثلاث: عالم رباني، ومتعلّم على سبيل النجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح»[١].

---

(١) نهج البلاغة، باب قصار الحكم.

إن الحكيم يهتدي بعقله في معرفة موقعه في هذا العالم، وموقفه الذي لابدّ أن يتخذه، والطريق الذي لابدّ أن يسلكه. أما الذي يهمل عقله وفطرته، فهو بمرور الزمن يتخلّف عن ركب الإنسانية شاء ذلك أم أبى.

فالعاقل الحكيم هو مثل مَن يقف على قمّة جبل، أمّا الجاهل المهمِل لعقله وفطرته، فهو مثل الذي ينحدر إلى وادٍ سحيق، أمّا الفطرة فهي مثل جهاز إستقبال عالي التوتر يتفاعل مع كل خير وحق، ولكن قد يصيبه الضعف والخور فيحتاج إلى الشحن من جديد والإيقاظ والصحوة، وذلك لا يتم إلّا بالتذكير المستمر، والتفكّر الدائم، والاهتمام بالحق.

إن إثارة الفطرة تكون بالتفكير، وإثارة العقل تكون بالتفعيل، فالتفكّر منهج ذاتي لزيادة رصيد العقل واتساع مداه، ولذلك فإننا نرى أنّ العقلاء هم دائموا التفكر، بينما الجهّال فهم يهملون ذلك ويعيشون في حالة شرود عقلي، ولا مبالاة فكرية.

وهذه العادة عقبة كبرى في سبيل تقدم الإنسان ونجاحه في مختلف مجالات الحياة. يقول ربنا: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

ويقول: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

ويمدح المؤمنين قائلاً: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3].

ويطلب من النبي أن يذكر للناس القصص، لكي تكون حافزاً لهم على التفكير، فيقول: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4].

ويعتبر الله الهدف من إنزال الكتاب هو تذكير الإنسان، وتفعيل عقله، لعلّه يتفكر. فيقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[5].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٢٠.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

(٥) سورة النحل، الآية: ٤٤.

ويضرب الله الأمثال في كتابه الكريم لعلّ الناس يتفكرون فيها، فيقول ربّنا: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

ويقول الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام: «رحم الله امرءاً تفكّر فاعتبر، واعتبر فأبصر»[2].

ويقول عليه السلام: «إنما البصير من سمع فتفكّر، ونظر فأبصر»[3].

ويبين كيف أن الإنسان بالتفكير يستطيع أن يرى الأشياء، فيقول: «من تفكّر أبصر»[4].

وفي الحقيقة فإن التفكير يركّز عمل العقل. ويجمع شتات حواسّ الإنسان ويسلّطها على قضية معينة فينفذ معها وينبثق منه طاقات يصعب تصورها، تماماً كما أن

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٢١.

(٢) نهج البلاغة، خ ١٠٣.

(٣) نهج البلاغة، خ ١٥٣.

(٤) نهج البلاغة، كتاب رقم ٣١.

أشعة الشمس مهما كانت ضعيفة حين يتمّ جمعها من خلال عدسة مكبرة وتسلّط على نقطة معينة، فإن الحرارة تتضاعف في تلك النقطة حتى تحرق ما تتسلّط عليه.

وكما أن تجميع البخار وتركيزه في مكان مغلق، يعطيه قوة دفع هائلة يمكنها تحريك قطار ثقيل يزن الألوف من الأطنان، كذلك الطاقة العقلية في الإنسان، فإنها إذا تركّزت على نقطة واحدة انبثقت عنها قدرات هائلة تكاد أن تبصر ما وراء الأشياء.

وكلّما كانت النقطة التي يركّز الإنسان عليها عقله أهم، كلما إتّسعت قدرته على الفهم والإدراك. أما الذي لا يشغل عقله إلّا بالتوافه، ولا يوجّه حواسّه إلّا إلى كل ما هو عابر، فهو يبدد قدراته العقلية، ولا ينمّي أيّ شيء في نفسه، وبذلك يصبح بليد الفكر شارد الذهن، وتنكمش قدراته الفكرية وتتضاءل، وكما يقول الشاعر:

من لم تفده عِبَر أيامه
كان العمى أولى به من الهدى

وهذا ما يفعله كلّ أبله يندفع بكل ما أوتي من قوّة جسدية وراء قطعة من الحلوى، أو لحظة من اللهو. في الوقت الذي يندفع المفكر نحو قضايا كبرى في هذه الحياة. فمن أراد النجاح في هذا الجانب، فعليه أن يكون دائم التفكير في مختلف الأمور، وأن يهتمَّ بعقله أوّلاً.

إجعل ظاهرك مرآة حقيقتك

من المطلوب أن يكون الظاهر عنواناً للباطن، بأن يكون المرء صادقاً مع نفسه سرّاً وعلانية. والأفضل من ذلك أن يكون الظاهر حسناً والباطن أحسن منه.

أما الأسوأ فأن يكون الظاهر قناعاً جميلاً، يتستر به صاحبه، حيث يصبح حينئذٍ منافقاً يخدع الناس بجلبابه الجميل الذي يسرّ الناظرين، ليمارس الفساد في سرّه بشخصه الخبيث.

وكما أن للإيمان درجات، فإن للنفاق أيضاً درجات، وكما أن للصدق مراتب، فإن للكذب دركات، ولعل بعض الشرِّ أهون من بعض، كما أن الخير بعضه أفضل من غيره.

ويصدق ذلك في جميع مجالات حياة الإنسان الاجتماعية، والدينية، والسياسية، والاقتصادية.

فلربما يكون المنافق عاملاً في المجال السياسي، حيث يتظاهر بالخير، ويبطن الشر، ويوزّع على الناس الوعود المعسولة والشعارات البرّاقة، ويتظاهر بالدفاع عن الحقوق العامة حتى ينتخبه الناس، فإذا جلس على أريكة السلطة بدأ يظلم العباد، ويجمع الأموال على حساب الفقراء، ويستخدم وعوده ومظهره قناعاً مزيفاً لهدفٍ أناني يتجسد في حبّ السلطة.

ولربما يكون المنافق عاملاً في المجال الديني، حيث يتظاهر بالالتزام بالتقوى، ويبطن الفسق والفجور، فيتحدّث للناس عن الزهد، ولكنه يطمح في المزيد من الدنيا، ويطلب من الناس القناعة، بينما كلّ خلية من خلايا جسمه متعلقة بمصالحها أكثر من تعلق الطفل بثدي أُمه. يقول للناس الحسنى ويفعل بخلاف ما يقول، يأمرهم بالمعروف، وهو يعمل المنكر،

يلبس قناع الدين، ليخفي حبّ الشهوات.

وهذا النوع من الرجال أخطر على حياة الناس ومصالحهم من أيّ نوعٍ آخر، والسبب أن النفاق الديني يخرّب ضمائر الناس، ويمنعهم من الإيمان بالله.

فإذا كان النفاق السياسي يخرّب العلاقات الاجتماعية بين آحاد الناس، فإن النفاق الديني يخرّب العلاقات العبادية بين العباد وربّهم، وحسب تعبير الحديث القدسي: «أولئك قطّاع طريق عبادي المريدين»[1] لأن مَن يقف في طريق الله ويتظاهر بالإيمان، لكنه يعمل بخلاف ذلك، سيمنع السائرين في هذا الطريق من مواصلته، لأنهم يجدون أمامهم نموذجاً سيئاً للغاية.

وفي الحقيقة فإنّ النفاق لا يسود بلداً إلّا وتنعدم الثقة بين المواطنين فيه، ويؤدي الأمر إلى التفكك الاجتماعي

---

(١) الكافي، ج ١، ص ٤٦، باب المستأكل بعلمه.

من جهة، وانتشار ظاهرة (النفاق) عند جميع شرائح المجتمع.

فحينما ينافق الحاكم فإن المحكوم سينافق معه، وحينما ينافق التاجر فإن العملاء أيضاً ينافقون معه، وحينما ينافق رجل الدين فإن أتباعه ينافقون معه أيضاً.

وهكذا يأخذ الشك مكان الثقة، والنفاق مكان الإيمان، والعمل السيّئ مكان العمل الصالح. من هنا فإن مشكلة النفاق أخطر من مشكلة الكفر، لأن الذين يكفرون يكشفون عن هويتهم علناً، فيعرفهم الناس على حقيقتهم. أما الذين ينافقون فإنهم مثل فاكهةٍ فاسدة في صندوق من الفواكه الصالحة. إنهم يتغلغلون بين صفوف الناس، ويثبّطون من عزائمهم، ويضلّونهم عن الصراط السوي، ويزوّرون عليهم المبادئ والمعتقدات.

فالنفاق مرض مُعدٍ بلا علامات ظاهرة، وهو مثل مرض قاتل لا ألم فيه، فهو لا يُكشف إلّا بعد القضاء على صاحبه. يقول الشاعر:

يلقاك والعسل المصفى يُجتنى

من قوله، ومن الفعال العلقمُ

فكم من «ممثل» لإبليس وهو يلبس مسوح القدّيسين.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «مثل المنافق كالحنظلة الخضرة أوراقها، المرّ مذاقها»[1].

ويقول عليه السلام: «المنافق قوله جميل، وفعله الداء الدخيل»[2]، ففعل المنافق هو داء يضر مثلما يضر المرض الخفي، ويقول الإمام عليه السلام أيضاً: «قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله: إني لا أخاف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً، أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه، وأما المشرك فيقمعه الله بشركه، ولكني أخاف عليكم كل منافق الجنان، عالِم اللسان. يقول ما تعرفون ويفعل ما تنكرون»[3].

---

(١) غرر الحكم، ج ٦، ص ١٥٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) نهج البلاغة، ص ٣٨٥، كتاب ٢٧.

إن المنافق يعاني من انفصام في شخصيته، وهو بذلك يُظهر غير ما يُبطن، ويعيش حالة من التمزق الداخلي، والفساد (الجوّاني) فيحاول التستر عليه بالنفاق (البرّاني)، ولذلك فهو يكذب، ويخلف، ويغدر، ويفجر، وتلك هي علامات المنافق.

يقول رسول الله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً، وإن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: مَن إذا حَدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[1].

إنّ من أظهر مصاديق النفاق هو أن يكون للمرء شخصية كذوبة، فلا يكون مظهره هو العنوان الصحيح لمخبره وهذا من أظهر مصاديق الكذب، يقول الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «جُعلت الخبائث في بيت وجُعل مفتاحه الكذب»[2].

(١) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٩٤.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٦٣.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ الحياة قائمة على الحق لا على الباطل، وأنّ النفاق هو عين الباطل، عرفنا أن لا تقدم مع النفاق، ولا نجاح لمن لم يكن صادقاً مع نفسه ومع الناس.

من هنا فإنّا لم نجد عظيماً واحداً من عظماء التاريخ كان ينافق مع نفسه أو مع الناس، كما لم نجد حضارة واحدة قامت على أساس النفاق، بل لم نجد قرية أصبحت آمنة يأتيها رزقها رغداً، إذا سادها النفاق وحكمها المنافقون.

فلكي تنجح: فلابدّ أن يكون مظهرك عنوان مخبرك، ولابدّ أن تصلح جوّانيك كما تُصلح برّانيك، وتزيّن نفسك كما تزيّن جسمك.

لكي تتربع على القمة
إتخذ قدوة

يترك النموذج تأثيره على الناس أكثر من ألف تعليمة وألف حكمة، ولعل أفضل طريقة لهداية الآخرين أن يكون صاحب الدعوة نموذجاً جيّداً للالتزام بالقيم التي يدعو إليها.

ولكي يصبح كذلك فهو بحاجة إلى أن يقتدي بالصالحين في الحياة. فللقدوة الحسنة دور كبير، وإن كان خفياً، في التأثير على وعي الناس وثقافتهم، فإذا كانت القدوة حسنة كان التأثير حسناً، وإن كانت سيئة كان التأثير سيئاً، مع قطع النظر عن الكلام الجميل أو المظهر الأنيق.

من هنا فإن الأمم العظيمة تبجّل رجالها الماضين الذين خلّفوا وراءَهم إرثاً معنوياً للأجيال، وكل شعب ناجح يتخذ قدواته من تاريخه، يستلهم منهم روح الشجاعة والبسالة، ودروس التضحية والفداء أو ما أشبه ذلك.

ومع أنّ وسائل الدعاية كانت متخلفة في العصور الماضية، إلّا أنها كانت مؤثرة في إبراز مآثر الشخصيات التاريخية. وكان الناس يتناقلون قصصهم وملاحم بطولاتهم باستمرار، بحيث كان لها وقع خاص في قلوب السامعين.

ولكن مع تطور وسائل الإعلام ووقوعها في أيدي غير أمينة، فإن هذه الوسائل بدأت تحيك بطولات زائفة، بحيث إن القدوات التي تُعرض على الناس هم (أبطال) في اللّهو واللّعب والقتل والجريمة والتسلّط والإرهاب وما شابه ذلك، حتى إنّ أفلام الكارتون أيضاً تعرض للأطفال صوراً «لأبطال» ينتصرون على أعدائهم من

خلال التحايل، والدجل أو استخدام القوة وما أشبه ذلك.

ويحاول الإعلام أحياناً أن يصنع للأمم أبطالاً أسطوريين من غير بيئتهم، وغرباء عن ثقافتهم، وبعيدين عن مبادئهم. وهنا تكمن أهمية إبراز القدوات الحسنة من الرجال المؤمنين الصادقين، والملتزمين بالعمل الصالح، والعاملين لصالح الناس في حياتهم.

إنّ أهمية اختيار النموذج تأتي من أنّ الناس ليس بإمكانهم اختيار آبائهم وأُمهاتهم وبيئتهم التي يولدون فيها، بل أحياناً لا يستطيعون اختيار معلميهم في الطفولة ومن يمكن أن يكونوا قدوات طيبة في حياتهم، ولكنهم قادرون على اختيار القدوة الكبرى في حياتهم بعد أن يكبروا.

فأنت لا يمكنك أن تبدل أبويك، أو تغيّر الطفولة التي مررتَ بها، والبيئة التي عشتَ فيها، والعائلة التي

كبرتَ معها ولكنك قادر أن تختار من تريد نموذجاً تقتدي به في حياتك، وقدوة تحذو حذوه في أعمالك.

وقد يتساءل البعض عن الحاجة إلى اختيار قدوة حسنة، وربما يظن أن اختيار (القدوة) يعني سلب حرّيته، حيث عليه أن يقلّد أحداً في طريقته، بدل أن يجرّب حظه في الحياة، أو يحاول أن يكون هو قدوة للآخرين.

غير أننا في مجال الصلاح والخير لا يمكن أن نستغني عن هدى الذين سبقونا، أو لا نحاول تكرار النموذج الصالح الذي كانوا عليه. فمن يرفض الاقتداء بالذين سبقو فإن عليه، على أقل التقادير، أن يبدأ الحياة من نقطة الصفر.

بينما باستطاعة الإنسان أن يتجاوز الكثير من المراحل، باتخاذه قدوة حسنة في حياته.

لنفترض أنك ترغب في أن تصبح خطيباً ناجحاً،

فالطريق إلى ذلك لا يبدأ من تجربة حظِّك في كل صغيرة وكبيرة من أمور الخطابة من دون الاقتداء بالآخرين، فهنالك من سبقك في هذا المجال وسلك الطريق ونجح فيه، وربما لم ينجح إلّا بعد أن قضى فترة من عمره في تجربة الطرق الخاطئة. فلماذا تريد أن تكرر الأخطاء ذاتها التي كررها غيرك، وعرف بالتجربة إنها لا تنفع؟

إنّ البشرية إنما تقدمت في الحياة لأنها استطاعت أن تحتفظ بتجارب الآخرين، وتستفيد منها، وتبني على نتائجها.

ولو افترضنا أنّ كل جيل أراد أن يجرّب حظّه في كل مجالات الحياة منذ البداية، فلا شك أننا لم نكن قد أحرزنا أيّ تطور في أيّ مجال من مجالات الحياة.

هنا قد يخلط البعض بين (القائد) و(القدوة) فيظن أن المطلوب هو أن يكون هناك دائماً من يقوده في كل صغيرة وكبيرة.

• إن القائد هو من يمارس دور القيادة الفعلية لمن فوضوا إليه إتخاذ القرار، لكن القدوة تختلف عن القائد. لأن القدوة هو ذلك البطل الذي قام بدور بطولي في الحياة، وساهم في إعلاء قيم الحق، ومبادئ الخير، وشارك في إغناء التجربة الإنسانية.

ومن كان في مثل هذا المقام، فهو يستحق أن يُتخذ نموذجاً وقدوة، ومثالاً يُحتذى من قبل الآخرين. إنّ مَثَل القدوة كمثل النصيحة الطيبة والحكمة الفاضلة التي هي ضالة كل عاقل، فكم من عظيم إرتشف من معين حكمةٍ سمعها من فم فلاح، وكم من ناجح اتخذ الناجحين قدوة فنجح في الحياة.

فالعظماء والحكماء والأبطال هم من يجوز أن نتخذهم قدوات في حياتنا، ونسلك الدرب الذي سلكوه، ونقتفي آثارهم في أعمالنا، لأنهم عملوا الصحيح فيما مضى.

واتخاذ القدوة في الحياة هو مثل أن يحمل أحدنا مشعلاً عندما يجوب مجاهيل الغابة في الليل، إذ من دون أن يمتلك الإنسان وسيلة تنير له الدرب، فهو لا محالة واقع في مطبات الطريق.

فالقدوة الحسنة ليست للماضي، بل هي للمستقبل، لأنها تفتح علينا باب الآتي على مصراعيه لتنير دروب الخير والبطولة والمعرفة. بالإضافة إلى أن القدوات الحسنة تلهم الإنسان الصبر والحكمة، وتدفعه إلى أن يعمل الصحيح في المواقف الحرجة.

وكم هناك من رجال يعلّقون صور من سبقوهم على جدران غرفهم، أو يكتبون أسماء العظماء، أو كلماتهم الحكيمة في بيوتهم، فإذا حان الوقت لاتخاذ القرار المناسب، تأملوا الصورة، أو فكروا في صاحب الاسم، أو استنجدوا بالحكمة التي علّقوها في غرفهم ليستطيعوا اتخاذ الموقف الصحيح، مستلهمين من قدواتهم الحكمة والعزيمة والشجاعة.

وكم من رجال يستلهمون البطولة من خلال تصوّر أحد أبطالهم حيّاً وفي مكانهم ليتخذوا الموقف الذي يتصورون أنه لو كان حيّاً لاتخذه. ويمكننا أن نتنبأ بالقرار الذي سيتخذه البطل الذي أصبح جزءاً من التاريخ من خلال مواقفه التي اتخذها في السابق، وأن نقلده في اتخاذ ذات الموقف وبنفس الطريقة في الوقت الحاضر.

إنّ عنصر الضعف في الإنسان هو أنه لا يعلم الكثير فيما يرتبط بنتائج مواقفه في المستقبل، ولتجاوز هذا الضعف فإن بإمكانه أن يختار القدوة الصالحة في مجال عمله، لأن نتائج أعماله واضحة للعيان.

ولابدّ هنا من التنويه إلى أنّ المطلوب هو الاقتداء بالرجال العظام، وليس محاولة تقمّص شخصياتهم، فأنت وُلدت بإرادة خاصة من بارئك، ولك دورك المميّز في الحياة، كما أنّ لك جسمك الخاص بك، ورغباتك المميّزة التي لا يشاركك فيها أحد.

ودورك قد يشابه أدوار الآخرين، أو يختلف عنها، إلّا أنه ليس متداخلاً فيها. إنك قد تجد عشرين مهندساً يقوم كل واحد منهم بما يجب عليه في عملية التخطيط لإقامة بناءٍ كبير، إلّا أنّ كل واحد منهم يؤدي دوراً لا يؤديه غيره، فالتماثل هنا في المهنة لا يعني الذوبان.

فعندما نؤكد على ضرورة إتخاذ القدوة الحسنة في الحياة، فإنما نعني بذلك التعرف على العظماء، وتفهم طريقتهم في العمل، ودوافعهم في الحياة، لكي نستقي العناصر الإيجابية من شخصياتهم، حتى نعمل كما عملوا، أو نتخذ المواقف السليمة كما فعلوا، ولكن من دون أن ننسى أن لكل واحد منّا دوره الخاص في الحياة.

ما أنّ له خصوصياته التي قد تختلف، بوجه أو بآخر، عن الذين يريد تقليدهم. فمن غير الممكن ــ على كل حال ــ أن تكون أنت نسخة طبق الأصل عن

غيرك، بل إن التشابه مهما كان شديداً، فلابدّ أن يختلف في بعض التفاصيل عن الآخرين، لأن الكون ليس جهاز استنساخ كبير حتى يكون الناس على شكل واحد.

ولو أنّ أحداً أراد أن يكون صورة مستنسخة عن غيره فهو حتماً لن يكون الأصيل، بل سيكون صورة مزيّفة عنه، لأن المستنسخ قد يشابه الأصل ولكنه ليس مثله في القيمة. فمن يحاول أن يستنسخ صور الآخرين في ذاته، من دون أن يضيف عليها خصوصياته الإنسانية سيكون صورة منسوخة عن غيره، ولا قيمة لمثل هذه الصورة.

* * *

ثم إنّ تقليد العظماء يجب أن يبدأ منذ الساعات الأُولى التي بدأوا فيها مسيرتهم الرائدة، فمن يريد تقليد أحد شخصيات التأريخ فلابدّ أن يقلده في مقدمات نجاحه وليس في نتائجه، لأن محاولة تقليد النجاح بعد

وقوعه أمر مستحيل من دون مقدماته.

فلو أنّ أحد الشباب مثلاً أراد أن يصبح مثل أحد أبطال الملاكمة، فإنّ الذي يحتاج إليه ليس هو أن يقفز على الحلبة ويحرك يديه ورجليه كما يفعل ذلك الملاكم، وإنما لابدّ أن يقوم بالتدريبات الشاقة التي قام بها الملاكم قبل أن يصعد الحلبة.

ومن أراد أن يصبح مؤلفاً ناجحاً، فلابدّ أن يتعلّم الأدب والبلاغة مثلما فعل قدوته، أما أن يقلده في طريقة جلسته وراء الطاولة، وكيفية إمساكه بالقلم، وما شابه ذلك فلن يؤدي به إلى النجاح، فللنجاح أسبابه. وللعظمة متطلباتها..

ومن أراد أن يقتفي أثر الناجحين فإنّ الطريق مفتوح أمامه، ولكن بشرط أن يهيّئ المقدمات اللازمة، ويدفع الثمن، فكما أن العظيم يدفع ثمناً باهضاً لعظمته فإن على من يريد أن يحتذي به أن يدفع ذات الثمن.

وهكذا فإنّ باستطاعتك التربّع على القمة، ولكن بشرط أن تحمل نفسك على الحركة وتتسلق الجبل، كما فعل غيرك ووصل؛ مستفيداً من طاقاتك الخاصة وإمكانيّاتك المميّزة. فأنت كائن فريد في هذا الكون ولك شخصيّتك المتفردة تماماً، كما هو الأمر بالنسبة إلى النباتات والورود، فلكل نبتة شخصيتها ولكل وردة خصوصيتها.

فكن أنت كما أنت، مع محاولة أن تتعلم من غيرك، وتقتدي به. من هنا فإن الذوبان في الآخرين ليس ممكناً كما أنه ليس مطلوباً، فلا أحد يطلب منك أن «تموِّع» ذاتك وأن تمسخ شخصيتك لكي تصبح غيرك.

من هنا فإن المحاولة وبذل الجهد، وسلوك الطريق القويم، واتخاذ المواقف الصعبة، وسهر الليالي في سبيل المعالي، هي الخطوات الضرورية التي توصل الإنسان إلى المكانة اللائقة بالعظماء.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهداً، وأجّر في الأغلال مصفّداً، أحبّ إليّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد وغاصباً لشيء من الحطام.. وكيف أظلم أحداً لنفس يسرع إلى البلى قفولها، ويطول في الثرى حلولها»[1].

فمن أراد العظمة فلابدّ أن يكون له صفاء مثل هذا الصفاء، وإرادة بحجم هذه الإرادة، وأن يتحمل في سبيل ذلك بمقدار ما يستطيع.

وقد لا يكون بالإمكان أن نفعل مثلما فعل أمير المؤمنين عليه السلام، ولكن علينا أن نسعى لذلك، وكما قال عليه السلام: «ألا وإنّ لكل مأمومٍ إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه، ألا وإنّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه، ألا وإنّكم لا تقدرون على ذلك،

---

(١) بحار الأنوار، ج ٤١، ص ١٦٢، باب ١٠٧.

ولكن أعينوني بورع واجتهاد وعفة وسداد»[١].

ولقد صدق الشاعر الذي يقول:

فمن طلب العُلى سَهَر الليالي

يغوص البحرَ من طَلبَ اللئالي

---

(١) شرح نهج البلاغة، ج ١٦، ص ٢٠٥.

حاسب نفسك

الثواب والعقاب يمثّلان كفّتي ميزان العدل؛ فلا يُقام العدل إلّا بأن تكون كفّة الثواب متساوية مع كفّة العقاب..

ومن هنا فلابدّ أن يؤدي العمل الحسن إلى التشجيع والتقدير والثواب لفاعله. وأن يؤدي الفعل القبيح إلى التأنيب والتقريع والعقاب لفاعله أيضاً.

ولا شك أن الثواب والعقاب قانونان حقيقيان في هذا الكون، يسيران بسياق متساوي لتحقيق العدل والحق، إذ لا يتحقق شيء إذا كان هنالك ثواب بلا عقاب، أو عقاب بلا ثواب، فلا يتحقق العدل

والاستقرار إلّا بوجود الثواب إلى جنب العقاب، والعقاب إلى جنب الثواب، فيصرف الثواب لمن يستحقه، والعقاب على من يستحقه، لكيلا يتساوى الخير مع الشّر، والصلاح مع الفساد، والحق مع الباطل.

يقول الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر: «ولا يكوننّ المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء».. أي لابدّ أن يُعاقب المسيء كما لابدّ أن يُثاب المحسن.

ويضيف الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام قائلاً: «فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة. والزم كلاً منهم ما ألزم نفسه»[١]..

فإذا كان المحسن والمسيء متساويين أمام الحاكم فإن المحسن يصبح زاهداً في إحسانه، بينما يتشجع المسيء على مواصلة إساءته، لأن المحسن لا يجد

(١) نهج البلاغة، ص ٤٣٠، كتاب ٥٣.

الثواب على إحسانه، والمسيء لا يجد العقاب على إساءته.

وفي الحقيقة فإن الساحة الأُولى التي يجب علينا أن نطبّق فيها قانون الثواب والعقاب هي ساحة النفس البشرية.

فهي بحاجة إلى حاكم عادل يردعها عن الإساءة، ويشجعها عند الإنابة إلى الخيرات، لأن النفس لا تكون على حال واحدة، إنما طبعها التغيّر والتلوّن فتجرّ صاحبها إلى المهالك أحياناً، كما ترتقي به إلى المعالي أحياناً أخرى.

ولذلك فإنها بحاجة إلى حاكم يسيطر عليها ويتحكم فيها ويقوم بتأديبها، ولا يكون التأديب إلّا عن طريق الثواب إن أحسنتْ، والعقاب إن أساءتْ.

ففي لحظات الضعف ترتكب النفس ما تشتهي من آثام ـ مما نهى الله تعالى عنها ـ مثل: إثم الحسد،

وسوء الظن، وما أشبه. وعند استيقاظ الضمير يأتي الندم والتوبة والحوبة.

غير أن الندم وحده لا يكفي عقاباً على إثم النفس، لأن الندم لا يكفي لمنعها، عن مزاولة الآثام. إن الموقف هنا يتطلب ترويضاً وتدريباً، بحيث نمنع النفس عن بعض ما تبتغيه عقاباً لها على جريرتها إن أساءت..

وأن نجازيها، ونحسن إليها، ونلبي بعض سؤلها إن أحسنت، في نيّة الخير والعمل الصالح. إن الثواب والعقاب في حقيقة الأمر مربيان نموذجيان للنفس، يرشدانها إلى الصلاح، ويمنعانها عن الغي.

ولعلّنا نجد مثال ذلك في الصيام، فمن لا يصم في يوم رمضان المبارك، فإنه يعاقب عقاباً شديداً، إن لم يكن له عذر وهو صوم ستين يوماً بدل اليوم الواحد.

بينما يجب على الصائم الإفطار في يوم العيد ولا

يجوز الصيام فيه، جائزة له على صومه الشهر الكريم.

وكذلك فيما يرتبط بعيد الأضحى، فبعد قيام الحاج بتحريم نفسه من الكثير من الحلال بسبب الإحرام، مثل الطيب والنساء وغير ذلك، فإن المؤمن لابدّ أن يفطر ويأكل ويشرب أيام العيد، فقد أمر رسول الله ﷺ أن ينادي المنادي في منى: «ألا، لا تصوموا أيام التشريق فإنها أيام أكل وشرب وبعال»[1]، فالنفس التي تمتنع في أيام شهر رمضان عن إتيان ما اشتاقت إليه في النهار، طاعة لربها وإجابةً لأوامره، فإن لها ثواب الإفطار في يوم العيد وإعطاءها سؤلها. وكذلك النفس التي امتنعت في أيام الحج عن محرمات الإحرام.. فإن جائزتها بأن يفسح لها المجال في إعطائها سؤلها يوم العيد. ومن هنا فلابدّ من محاسبة النفس، وإجراء الحكم عليها إن خيراً بخير وإن شرّاً بشرّ، ولا ريب في أن الإنسان الذي يقوم

(١) وسائل الشيعة، ج ١٠، كتاب الحج، أبواب الذبح، باب ٥١، ص١٦٦، ح ٨.

بمحاسبة نفسه ومجازاتها، فإنه يكون قد حقق إنجازين مهمين:

الأول: إنه أصبح حاكماً على نفسه وقائداً لها.

والثاني: إنه قام بمعاقبة نفسه قبل أن يعاقبها الناس، وحاسبها قبل أن يحاسبها الناس.

ومن هنا يحث الرسول ﷺ المؤمنين على محاسبة أنفسهم، فيقول: «لا يكون الرجل من المتقين، حتى يحاسب نفسه أشدّ من محاسبة الشريك شريكه، فيعلم من أين مطعمُه؟ ومن أين مشربُه؟ ومن أين ملبسُه؟ أمن حلٍ أم من حرام؟»[1].

فالمحاسب الأول لنفسك يجب أن تكون أنت، والقاضي الأول على نفسك يجب أن تكون أنت أيضاً. فأنت من يعطي نفسك سؤلها إن أحسنت، ويعاقبها إن أساءت.

* * *

(١) بحار الأنوار، ج ٧٧، ص ٨٦.

وربما ينبري هنا سائل ليقول: كيف أثيب نفسي وأنا أنا، وكيف أعاقبها وأنا أنا؟ وكيف أكون أنا الرقيب، والحاكم، والمحكوم في وقت واحد؟

وفي الحقيقة فإن أفضل من يكون قاضياً على النفس هو صاحبها، لأن محكمة النفس هي المحكمة الوحيدة التي لا يمكن أن يزوِّر فيها أحد على القاضي، لأن النفس تعرف نفسها، والإنسان عالم بمعاصيه وأخطائه، فـ ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾[1]، كما يقول القرآن الكريم.

ومن هنا فإن محكمة الضمير تكون بالطبع عادلة، لأن من غير المعقول أن يتَّهم الإنسان نفسه بأمر لم تفعله، أو يبرّأها مما فعلته، فهو عارف معرفة كاملة بخطأه وصوابه، وبالعلم يسهل الحكم والقضاء ويكون عادلاً.

* * *

(١) سورة القيامة، الآيتان: ١٤ ـ ١٥.

وقد يسأل سائل هنا: كيف أثيب نفسي وكيف أعاقبها؟

والجواب: إن الثواب والعقاب يجب أن يكون، حسب العمل الصالح، أو العمل السيّئ.

فلو عزمت مثلاً على القيام بعمل إيجابي فيه الخير والصلاح، وكان يتطلب منك جهداً كبيراً ـ سواء ما يرتبط بتهذيب النفس أم بالقيام بالعبادات أو أداء عمل صالح أو المساهمة في برّه وإحسانه ـ ثم أنجزت ما عزمت عليه، فمن حقك القيام برحلة للترويح عن النفس.

أمّا إن جاءت الأفعال معاكسة، فلم تفعل الخير والصلاح بل نويت الشّر، فمن واجبك أن تعاقب نفسك بأن تمنعها عن بعض ما تتوق إليه، ومن هنا كان الصوم كفارة عن بعض الذنوب.

إن إجراء المحاكمة للنفس، وإعطاء الثواب على الإحسان، والعقاب على الإساءة، يؤدي إلى ترويض

النفس، لأن النفس بطبعها (أمّارة بالسوء) وهي متمردة على الضمير والعقل، ولذلك فإنها تحتاج إلى الترويض.

وإنّ لنا في العظماء أسوة حسنة في هذا المجال، يقول الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام: «وأيم الله يميناً، أستثني فيها مشيئة الله، لأروضنَّ نفسي رياضة تهشُّ معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً، وتقنع بالملح مأدوماً، ولأدعن مقلتي كعين ماء نضب معينها..

«أتمتلئ السائمة من رعيها فتبرك، وتشبع الربيضة من عشبها فتربض، ويأكل عليٌّ من زاده فيهجع؟ قرّت إذن عينه إذا اقتدى بعد السنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة والسائمة المرعية همّها علفها»[1].

إن ترويض النفس ليس بالضرورة عقاب لها، بل هو تأديب وتهذيب، لأن ذلك يساعدها على إتيان الخيرات ونبذ الشرور، ومن ثم فإن من مصلحة الإنسان أن يكون

---

(١) نهج البلاغة، خ ٤٥.

قادراً على ترويض نفسه، وهو البداية الضرورية لصلاح الفرد والمجتمع، لأن النفس هي البذرة الحقيقية لكل شيء، فإن صلحتْ، صلحتِ الأعمال، وإن فسدتْ، فسدت الأعمال.

ولذلك فإن الميدان الأول للثواب والعقاب هي النفس، لأنها الميدان الأول للصلاح والفساد، والميدان الأول للطاعة والمعصية، والميدان الأول للنجاح والفشل.. أيضاً.

ويروى في هذا الصدد أن راهباً من بني إسرائيل عبد الله أربعين عاماً ثم قرّب قرباناً فلم يُقبل منه، فقال لنفسه: «ما اوتيتُ إلّا من قبلِك، وما الذنب إلّا لك».

فأوحى الله تعالى إليه: «ذمّك لنفسك أفضل من عبادتك أربعين عاماً»[1].

حقاً إن الرقابة على النفس تُشعرها بوجود من يقوّم

---

(١) الكافي، ج ٢، ص ٧٣، باب الاعتراف بالتقصير.

مسيرتها، وهي وسيلة من وسائل معرفة النفس، التي هي مقدمة ضرورية لمعرفة الباري عزّ وجلّ: «فمن عرف نفسه عرف ربّه»[1] وهذا يعني أنّ من جهل نفسه جهل ربّه.

فمن لم يحاسب نفسه، فإنه قد يستمر في ارتكاب الحماقات، ويتورط في الباطل ويقوم بظلم الآخرين، فلا يكتشف قبح ما يفعل إلّا بعد فوات الأوان.

ومن هنا فإن «تزكية النفس» كانت المهمة الأُولى للأنبياء، كما أنها رسالة الله للإنسان. يقول ربّنا: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾[2].

ويقول أيضاً: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾[3].

---

(١) بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٢٠، باب ٦.

(٢) سورة الشمس، الآية: ٧ ـ ١٠.

(٣) سورة الأعلى، الآية: ١٥.

ويقول رسول الله ﷺ وهو يبيّن أنّ محاسبة النفس مقدمة للفوز في الآخرة: «جوّعوا بطونكم، واظمئوا أكبادكم، وأعروا أجسادكم، وطهّروا قلوبكم، عساكم أن تجاوروا الملأ الأعلى»[١].

وهكذا فإن من يريد أن يكون صالحاً فإن عليه أن يراقب نفسه ويحاسبها محاسبة الشريك شريكه، فيثيبها إن أحسنت، ويعاقبها إن أساءت، وبذلك يفوز في الدنيا والآخرة.

---

(١) تنبيه الخواطر (مجموعة ورام)، ج ٢، ص ١٢١.

قبل أن يصرفك المال؛ إصرفه

ينفع المال إذا كان عابداً للإنسان، أما إذا أصبح معبوداً له فهو بلا شك يضرُّ به؛ فالمال (خادم) أمين، ولكنه سيّد (غدّار)، وهو يمرّ بين أيدي الناس مرور الكرام، وينتقل من واحد إلى آخر، ومن شخص إلى غيره، من دون أن يغيّر شيئاً أو ينفع في شيء، إلّا إذا تصرف فيه صاحبه فباع واشترى، وعمّر وبنى، وكسب وأعطى وحينئذ يصبح هذا المال نافعاً، لأن المال أساساً مجرد وسيلة، ويفقد قيمته إذا أصبح هدفاً بحد ذاته.

وقد قيل: إن الإنسان لا يتمكن من الاحتفاظ بيديه بأكثر من كرتين من ثلاث: «الصحة» و«المال» و«راحة

البال»، والناس يريدون هذه الثلاث معاً، يريدون الاحتفاظ بأموالهم، وصحتهم، وراحة بالهم، فلا يستطيعون.

إن الأكثرية يطلبون المال لأجل الصحة، وراحة البال، ولكنهم في النهاية يضحّون براحة البال والصحة من أجل المال.

إن من يريد الصحة والمال معاً من دون أن ينفق المال على صحته وسلامته لن ينعم براحة البال، ومن يريد المال وراحة البال، فلن ينعم بالصحة والسلامة، لأنّ من يريد كل شيء فسوف يخسر كل شيء.

ومن هنا فإنه ينبغي لك أن تحدّد علاقتك بالمال ونسبته إليك، ومن دون أن تفعل ذلك فلربما يكون «سيّدك» القاتل لا «عبدك» المطيع.

تصوّر كأنك أصبحت في لحظة من اللحظات مليونيراً تملك ما لا تحتاج إليه، ثم انقلبت الآية عليك

فأصبحت فقيراً معدماً تجرُّ أذيال الخيبة والأسى؛ ماذا سيكون موقفك آنئذ؟!

ربما تنتحر، لأنك خسرت المال ولكن السؤال هنا هو: لماذا كنت تريد المال؟

لقد كان المطلوب أن يكون المال لك، وليس أن تكون أنت للمال. أن تملك المال، لا أن يملكك المال، فلماذا عندما خسرته آسيتَ عليه إلى حد الموت كمداً أو انتحاراً؟

إنّ الناس يحلمون بالغنى والثراء، لأنهم يظنون أن صاحب المال لابدّ أن يكون سعيداً، كأن المال هو كل شيء في هذه الحياة، وبه يمكن لصاحبه أن يشتري السعادة والنجاح، من دون جهد أو تعب، ويظنون أن الدراهم والدنانير تكسو الرجال المهابة والجلال، وإنها تعطي الفصاحة لمن ليس فصيحاً، والسلاح لمن ليس شجاعاً، والجمال لمن ليس جميلاً..

وليس من شك أن للمال بعض التأثير في الحياة، فهو يعين صاحبه على تلبية بعض مآربه، ويساعده في تحقيق بعض رغباته، ولكن المال كغيره من الوسائل، فيه من المساوئ بمقدار ما فيه من المحاسن.

ومن مساوئه أنه يستنفد العمر من صاحبه، ويقلق راحته في المحافظة عليه ويحزنه إذا خسره، ومن لا يملك المال يعيش في أمل الحصول عليه، أمّا الذي يملك المال فهو يعيش الخوف من خسارته.

يقول الشاعر:

ألم تر أن الفقر يُرجى له الغنى

وإن الغنى يُخشى عليه من الفقرِ

ومن هنا فإن امتلاك المال كامتلاك أي شيء آخر في هذه الحياة، أمر مؤقت، ليس لأنّ أصحاب الأموال يمكن أن يخسروا أموالهم بين لحظة وأخرى، بدليل أن عشرات من الشركات الكبرى تعلن عن إفلاسها كل

عام، وإنما لأن الإنسان لابدّ أن يترك الدنيا وما فيها في يوم من الأيام. وكما يقول أميرالمؤمنين عليه السلام: «ليكن زهدك فيما ينفد ويزول، فإنه لا يبقى لك، ولا تبقى له»[1].

فأحدكما لابدّ أن يترك صاحبه، إما أن المال يدع صاحبه ويذهب، أو أن صاحب المال يدع المال ويموت. فلِمَ هذا الولع بالمال؟ والهلع من فقدانه؟ والجزع لخسارته؟ والطمع في المزيد منه؟

لقد حدث لرجل باكستاني فقير كان يعمل موظفاً صغيراً في بلدية (العين) في دولة الإمارات العربية المتحدة ـ ويدعى جابر محمد إسماعيل ـ حادث طريف يكشف عن حقيقة علاقة المال بالإنسان وحقيقة علاقة الإنسان بالمال، فهذا الشاب الباكستاني ذو الثلاثين عاماً اشترى أوراق الحظ (اليانصيب)، التي وجد

(١) غرر الحكم، ص ٢٧٦، حقيقة الزهد.

إعلاناتها في الصحف، وكان مركز الشركة التي تدير عملية السحب، بحسب تلك الإعلانات، في فلوريدا بالولايات المتحدة الأمريكية.

وبعد فترة من الزمن وصلته رسالة من الشركة تخبره أنه قد ربح مبلغاً كبيراً من المال، ليس مليوناً أو مليونين، بل مائة مليون من الدولارات الأمريكية دفعة واحدة. وظهرت صورة «جابر» هذا على الصفحات الأُولى من صحف الإمارات، وأجريت معه مقابلات صحفية وإذاعية، وكلّها كانت تركّز حول كيفيّة كسبه لجائزة اليانصيب هذه.

وقد ظهرت مع صورة الرجل صورة لشيك يحمل رقم سبعة عشر مليون دولار، هي الدفعة الأُولى من الجائزة التي سيستلمها الرجل تباعاً حتى يكمّل المائة مليون.

في تلك اللحظة اعتبر الكثيرون أن الحظ لم يبتسم

لهذا الرجل فحسب، بل قهقه في وجهه بشكل عريض، وانقلبت حياته رأساً على عقب، وانهال عليه عملاء المصارف، وسماسرة شركات التأمين، ورجال المال والأعمال، واتصل به النواب في البرلمان الباكستاني، وأجرى كل واحد من أبناء بلدته وعشيرته اتصالاً هاتفياً به، وبعضهم شدَّ الرحال لمقابلته حيث يعمل في دولة الإمارات.

وقد قال والده: «لقد اضطررنا إلى تغيير أرقام هاتفنا لكثرة الاتصالات».

وهكذا أصبح الرجل مليونيراً بين عشيّة وضحاها، إلّا أن الذي حدث هو أنه بعد شهرين تقريباً جاءت الصدمة وتبدل الحلم.

فقد نشرت صحف الإمارات أن عشرات من الآخرين قد فازوا بنفس الجائزة التي فاز بها هذا الرجل، ويبدو أن فوزه بهذا المبلغ الكبير دفع الكثيرين

لشراء أوراق اليانصيب، من ذات الشركة الأمريكية، وعلى أثر ذلك وصلت إليهم شيكات بأسمائهم الشخصية، إلّا أنه كتب على كل شيك عبارة «هذا نموذج لا تصدّقه الآن».

وبعد التحقيق تبيّن أن الشركة الأمريكية تلك إنما هي شركة وهمية، وإن فروعها في أوروبا غير مسجلة حكومياً، كما أن صناديق بريدها هي في المطارات، وقد سجلت تحت أسماء شخصية مستعارة.

وهكذا تبيّن أن الذي كسب المائة مليون دولار لم يكن الفقير (جابر محمد إسماعيل) بل كانت الشركة التي ربحت أمواله وأموال غيره من الفقراء الحالمين بالثروة. وبالطبع فإن جابر محمد إسماعيل كان قد ألغى ـ بعد حصوله على الشيك الكاذب ـ تعاقده مع الشركة التي يعمل فيها لأنه لم يعد بحاجة إلى راتب العمل، بعد أن أصبح في ظاهر أمره مليونيراً.

كما أنه بدأ يشتري الكثير من الحاجات بالدّين

وعندما تبدد الحلم وجد نفسه (مديونيراً) بدل أن يصبح (مليونيراً).

والعبرة في قصة هذا الرجل هي في مدى علاقة الأموال بالأشخاص، وكيف إنها علاقة مؤقتة، ولابدّ أن تتوقف هذه العلاقة في يوم من الأيام.

ويبدو أن المشكلة مع (جابر محمد إسماعيل) هي أقل مما هي مع أصحاب الملايين الحقيقيين، لأن (جابر) لن يحاسب غداً على أموال لم يمتلكها ولم يتمتع بها، إلّا أن أصحاب الملايين سيُحاسبون على ما خوَّلهم الله تعالى حساباً دقيقاً، من دون أن يكونوا قد استمتعوا بها، كما هو الأمر مع صاحبهم.

إن خيبة الأمل في المال خيبة مزدوجة، فالذي يترك أمواله ويرحل عن الدنيا، سيخيّب أمله فيها عندما يحاسب عليها في الآخرة، بالإضافة إلى خيبة الأمل في أنه خدم المال ولم يخدمه المال.

لقد كان أحدهم يؤمن بأن المال مشكلة، لذا حذّر ابنه حينما أوصاه قائلاً: «لا تُخبر أهلك وولدك كم عندك من المال، لأن مالك إذا كان كثيراً، تمنى أهلك موتك، وإن كان قليلاً هُنْت عليهم».

ومن مساوئ المال أن الكثيرين يقيّمون صاحبه بمقدار ما يمتلك من مال لا بمقدار ما يملك من الفضائل، حتى أن شاعرهم يقول:

ذريني للغنى أسعى فإنّي
رأيتُ الناسَ شرُّهُمُ الفقيرُ
وأبعدُهم وأهونُهم عليهم
وإن أمسى له حسبٌ وفيرُ
ويقصيه الندى وتزدريه
حليلتُهُ وينهرُهُ الصغيرُ

ومن مساوئ المال أيضاً: أنه يُستخدم كتعويض عن العلم، والذكاء، فترى أن أصحابه يتنافسون فيما بينهم حتى يصبحوا أغنياء بحجم الديناصورات، ولكن كما

حدث للديناصور حيث فضّل القوة على الذكاء فانقرض أمام أول تحدٍّ، فإنهم سرعان ما يفقدون حيلتهم، لأنهم لم يمتلكوا غير المال في هذه الحياة.

بل إنّ المال قد يُشهّر سلاحاً في وجه العلم، والأغنياء قد يقفون في وجه العلماء، حتى أنك ترى كأن الفقر دائماً شيمة العلماء، وإنه أول شرط للنبوغ في المجالات العلمية، وهو الذي يصقل النفس فيُظهر جوهرها الصافي.

لقد سُئل النبيﷺ ذات مرة عن الفقر فقال: «خزانة من خزائن الله».

وسئل مرة أخرى عنه فقال: «كرامة من الله».

وسئل مرة ثالثة عنه فقال: «شيء لا يعطيه الله إلّا لنبيّ مرسل، أو مؤمن كريم على الله»[1].

والظاهر أن النبيّﷺ لا يعني بالضرورة الفقر المادي بل يعني الشعور بالحاجة إلى الله للعوز التي عند الفقير،

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٤٧.

في مقابل الشعور بالامتلاء والاستعلاء الموجودَين عند الأغنياء.

يقول ربّنا: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1] فالله هو الغني ونحن الفقراء إليه. ولابدّ من كسب المزيد من المعالي. إن الفقر يكون أحياناً دافعاً إلى التقدم وحافزاً إلى بذل الجهود، كما أن الخوف من الفقر يكون بالنسبة إلى الأغنياء هو المانع لهم من العطاء. ولذلك لا يجوز أن تخاف الفقر حين العطاء.

يقول الشاعر:

من كان للخير منّاعاً فليس له
على الحقيقة إخوانٌ وخلّانُ

من جاد بالمال مال الناس قاطبةً
إليه والمالُ للإنسان فتّانُ

من يزرع الشرَّ يحصدْ في عواقبه
ندامةً ولحصد الزرع إبّانُ

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٥.

حسبُ الفتى عقلُهُ خلّاً يعاشرُه

إذا تحـامـاه إخـوانٌ وخـلّانُ

ويقول آخر:

أرى الناس اخوانُ الكريم وما

أرى بخيلاً له في العالمين خَليلُ

إن العبرة إذن ليست في أن تكون فقيراً أو غنياً، إنما العبرة أن تكون مالكاً للمال، وصاحب السلطة عليه، لا أن تكون محكوماً به، وله السلطة عليك.

ثمّ إنّ من يجمع الأموال ولا يصرفها سيكون حتماً محكوماً بها، لأنه لا يعطي خوفاً من الفقر والعوز فهو «يفتقر» خوفاً من أن «يفتقر» كما يقول أميرالمؤمنين عليه السلام: «عجبت للشقي البخيل يتعجل الفقر الذي منه هرب»[1]، فمن يملكه المال يمنعه من أن يتصرف فيه، ومن يمتلك المال يعرف أن قيمته في صرفه، لا في الحفاظ عليه.

---

(١) غرر الحكم، ص ٣٧٠.

وفي الحقيقة فإن الكرم والسخاء إنما يعد فضيلة عند من يملك القليل من المال، أما أصحاب الثراء الفاحش فإن العطاء واجب عليهم ومفروض منهم.

يقول الشاعر:

ليس العطاء من الفضول سماحةً

حتى تجودَ، وما لديك قليلُ

ومن هنا فإن «أفضل الجود ما كان عن عسرة»[1] كما يقول الإمام علي عليه السلام.

ويقول عليه السلام أيضاً: «جود الفقير أفضل الجود»[2].

فالغنى والثروة إنما هي نعمة بشرط الإنفاق، والعطاء. كما يقول الإمام علي عليه السلام: «لا فخر في المال إلّا مع الجود»[3].

---

(١) غرر الحكم، ج ٢، ص ٤٣٥.
(٢) غرر الحكم، ج ٢، ص ٣٥٨.
(٣) غرر الحكم، ج ٢، ص ٣٩٧.

ويقول الشاعر:

لم يعطك الله ما أعطاك من نعم

إلّا لتوسع من يرجوك إحساناً

فلكي تملك المال لابدّ من أن تصرفه، وإلّا فلسوف يصرفك المال، ويستهلك عمرك وحياتك. لأن القيمة الأساسية للمال، إنما تكمن في صرفه على حاجات صاحب المال، وأفضل من ذلك: صرفه على الآخرين.

أكثِر من زراعة الورد
لتحصل على حديقة

هنالك مثل فارسي يقول: «لا يصبح الفصل ربيعاً بتفتح وردة واحدة».

ومعنى ذلك أن الأمر الحسن ينبغي أن يتكاثر حتى يترك أثره المطلوب، فمن دون تراكم الأشياء الصالحة لا يحدث التحول النافع.. وهذا ينطبق على الجوانب الاقتصادية كما ينطبق على الأمور المعنوية، ويصدق في القضايا السياسية، كما يصدق في الأعمال الخيرية..

إن جودة العمل مطلوبة بلا شك، ولكن كثرته أيضاً شرط لتحقيق النتائج المرجوة، ولهذا فإن المؤلف لا

يكون مشهوراً عن طريق طباعة كتاب واحد، ولا يكون الخطيب مؤثراً في الناس إذا خطب لمرات معدودة، ولا يصبح المرء شاعراً إذا لم ينظِّم إلّا قصائد معدودة.

ولابدّ أن نؤكد على أنّ من لا يتفرغ للشيء لا يكون متخصصاً فيه، ومن لا يعطي من نفسه الكثير لا يحصل على الكثير، ويخطئ من يكتفي بعمل صالح واحد وينتظر نتائج باهرة منه.

يجب أن لا نمل من تكرار الخيرات، ولا كثرة الحسنات والصالحات، ولا زيادة الانجازات لأن كثرة الخير مطلوب، كما أن الشرّ قليله مرفوض.

لنتعلّم هذا الدرس من السيدة (آن لاندرس) المحررة في زاوية النصائح التي كانت تكتبها سبع مرات في الأسبوع، حتى نشرت من عام ١٩٥٥ إلى عام ١٩٨٤ ما مجموعه (١٠,٥٨٥) عموداً أجابت فيها على (٢١,٧٥٥) رسالة من رسائل القراء، وكل صاحب رسالة كان يكتب

عنوانه الخاص كانت تصل إليه ردود خاصة منها إلى منـــزلـه، وقـد بـلـغ مـجـمـوع تـلـك الـردود الـخـاصـة (٨,٣٨٣,٠٢٣) رسالة.

ولأنّ هذه المرأة استمرت تسدي النصح طوال أكثر من ثلاثة عقود، فقد أطبقت شهرتها الآفاق ولم تعد كتبها تعرف الحدود، وانتشر قراؤها في كل العالم فالإحصائيات تقول أن زاويتها تُقرأ يومياً من قبل (٧٠) مليون شخص، وتُطبع زاويتها فيما لا يقل عن ألف صحيفة في العالم.

ولم يقتصر تفاعل الناس على قراءة زاويتها، بل كانوا ينفّذون ما تقوله بشكل حرفي، فقد حدث في عام ١٩٧١م أن ناقش مجلس الشيوخ الأمريكي مرسوماً يتعلق بالأبحاث السرطانية ليرصد له (٣٧٩) مليون دولاراً، فكتبت «آن لاندرس» مؤيدة المرسوم وختمت زاويتها بقولها: «ارسلوا هذا المقال إلى أعضاء مجلس الشيوخ مذيلاً بأسمائكم»، فغرق مجلس الشيوخ في

واشنطن بأكثر من مليون رسالة، وفيما بعد نشرت الصحف صورة لغرفة البريد في مجلس الشيوخ وهي مليئة بأكياس الطرود البريدية مع لافتة كتب عليها: أخرجوا «آن لاندرس» من هنا.

وقد منحتها تسع جامعات شهادات فخرية، بعد أن حاضرت من على منبرها، كما كتبت في العديد من الصحف.

إن عمل المرأة هذه نموذج لما يجب أن تكون عليه الأعمال النافعة فهي تتسلم يومياً ما يقارب الألف رسالة وهي تجيب عليها فيما بعد، ولها عاداتها الخاصة في حياتها اليومية فهي تقول: «أنا أستيقظ في الثامنة أو في الثامنة والنصف صباحاً، وأؤدي تمارين رياضية لمدة خمسة وأربعين دقيقة على الأقل، ومع فطور الصباح أقرأ الصحف والمجلات، وأبدأ عملي في الساعة الحادية عشرة».

وتتضمن ثلث الرسائل اليومية آلاف الطلبات بإرسال

الكتيبات التي ألّفتها لاندرس مثل (المراهقون والجنس) و(الإدمان) و(حقائق عن المخدرات).. وهذه الطلبات لا تحتاج إلى رد خاص، إذ أن مساعديها الثمانية يرسلون الطلبات إلى أصحابها بالبريد، وتبقى نحو (٦٦٠) رسالة، ٤٠٪ منها تحمل العنوان والاسم وهي التي تستحق الرد والإجابة، فتظل (٢٦٤) رسالة لتقرأها (لاندرس) وترد عليها بشكل مباشر.

وهكذا تقضي (لاندرس) النهار في القراءة والكتابة في شقتها، وفي آخر النهار تذهب لزيارة أصحابها أو أقربائها أو تستقبل أولادها وأحفادها في المنزل، وترقد (لاندرس) في منتصف الليل، لأنها تعتقد إن الانسجام مع العصر يتطلب الكثير من النشاط.

يا تُرى، لو نجري مقايسة بين (لاندرس) ونسائنا في العالم العربي لوجدنا فروقاً كبيرة، منها: أن نسائنا لا تهتم عادة بالأمور الاجتماعية والثقافية، وتبرر المرأة العربية عدم إهتمامها بذلك بانشغالها بالبيت والأولاد،

والحال أن كل نساء العالم لديهن مثل هذه الإنشغالات، ولكنهن علاوة على ذلك يعملن في المؤسسات الخيرية، والمنظمات الإنسانية، والنقابات النسوية، ومنهن من استطاع أن يفعل الكثير من خلال تنظيمهن لوقتهن، وانخراطهن في الأنشطة الاجتماعية وعملهن الدؤوب.

* * *

هناك مثل فرنسي يقول: (إنّ عندليباً واحداً لا يصنع الربيع).. ويصدق هذا المثل على من يهتم بركن واحد من الحياة ويُهمل بقية الأركان، فالذي يريد أن يتقن الرياضيات لابدّ وأن يدرك مبادئ الحساب وأوليّاته كالجمع والطرح وعلاقة الوسطين بالطرفين، ويفهم تسلسل المعادلات المعقدة، ويفهم الجبر والتفاضل والتكامل، وحساب المثلثات، حتى يوصله المنطق الواقعي إلى إدراك علم الرياضيات بشكل شامل. وهذا ينطبق على سائر العلوم والفنون.

ومن هنا فإن من يريد أن يدرك آيات القرآن الكريم،

ويجد لذة ومتعة في قراءته، فلابدّ أن يكون مُلمّاً باللغة العربية وأحكامها في الإعراب والصرف والبلاغة، ومستوعباً لمفردات التفسير وترجمة المعاني، ومطلعاً على العلوم الاجتماعية والطبيعية، حتى يستطيع أن يُدرك بعض مدلولات الكلام الإلهي.

وهكذا فإن على المرء أن يعمل الكثير سواء في مجال العلم، أو في مجال العمل لكي ينجز شيئاً هاماً في هذه الحياة.

فعلى كل حال لابدّ من زرع أشجار كثيرة لنصنع بها مزرعة كاملة.

أقم صرح نجاحك
على الأفعال، لا ردود الأفعال

تندرج تصرفات الإنسان ضمن معادلتي: الفعل ورد الفعل. فمواقف الناس إما أن تكون أفعالاً ناتجة من وحي إرادتهم، أو ردود أفعال لمواقف الآخرين.

إنّ إتيان الفعل خيرٌ من رد الفعل، ليس لأنه نابع من العقل الواعي فحسب، بل لأنه ينطوي على شيء من الإبداع، والمعروف أن أغلب الأعمال الناجحة هي الأعمال التي أبدعها أصحابها.. على عكس ردود الأفعال التي غالباً ما تكون مرتجلة وعاطفية تفتقر إلى الاعتدال، وربما تجرُّ الإنسان إلى مزالق التطرف.

ولكنّ مواقف الناس في الأغلب ليست أفعالاً،

وإنما هي تندرج ضمن قائمة ردود الأفعال.

وباعتبار أنّ الإنسان خُلق ليؤثر في الآخرين أولاً ويتأثر بهم بعد ذلك، فهل يمكن اعتبار ردود الأفعال تلك هي مواقف غير حكيمة؟

والجواب: كلّا، لأنّ هناك ردود أفعال يمكن اعتبارها «أفعالاً» لأنها تعتمد على التروي وتحكيم العقل فيه، فالتروي يفسح المجال أمام العقل ليستخدم أدواته الفنية لتحليل وفحص مواقف الآخرين، حتى يستطيع الحكم عليها بدون خطأ أو زلل.

فإذا كانت ردود الأفعال عقلانية فهي ليست مباحة فحسب، بل قد تكون ضرورية أيضاً، فمن يقاوم الظلم يقوم بردة فعل، ولكنها ردة فعل واجبة وضرورية، بينما الذي يظلم فهو يقوم في الحقيقة بأداء الفعل، فهل من الصحيح عدم مقاومة الظالم لأن فيه ردة فعل؟

بالطبع كلّا.. ولكن هناك مجالات كثيرة يصبح فيها

العمل ردة فعل عجولة لا ينبع من العقل لأنها قائمة على أساس العاطفة، كما لو خسر الإنسان صفقة تجارية فقرر، تحت وقع تلك الخسارة، ترك العمل أو القيام بعمل مضاد.

ردة الفعل هذه ليست حكيمة، لأنها نابعة من غريزة الغضب، والغضب يسوق الإنسان إلى التطرف والإنفلات من القيم والمبادئ، ولمعالجة ذلك لابدّ في حالات الغضب من ضبط النفس وسجنها في صومعة العقل، كما لابدّ من ضبطها في حالات الرغبة الشيطانية، يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «لا ترخّصوا لأنفسكم، فتذهب بكم الرخص مذاهب الظلمة، ولا تداهنوا فيهجم بكم الإدهان على المعصية»[1].

ومما لا شك فيه إن من يمتثل لهذه الموعظة سيمتنع عن القيام بأي فعل فيه شيء من الإفراط أو التفريط، كما

---

(١) نهج البلاغة، خ ٨٦.

أن أعماله لن تقوده إلى منـزلق التطرف، لأنه ملتزم بالحدود العقلية والشرعية للأمور.

أما الذي لا يلتزم بذلك فإنه يتصرف إمّا بطريقة: الراغب المشتهي، أو الراهب الخائف، أو الغاضب الثائر، أو الراضي المستسلم.. وكل مواقفه هي ردود أفعال لتصرفات الآخرين، وقد ترتقي هذه الردود بالإنسان إلى معالي الأخلاق أو ترميه في هاوية الحضيض.

والسؤال هنا: ماذا نفعل؟ وكيف نتصرف حتى نحافظ على التوازن المطلوب في أعمالنا، وردود أفعالنا؟

والجواب: أن نلتزم في أعمالنا بالمبادئ والقيم، وأن نُحكِّم إرادتنا وعقولنا في ردات أفعالنا لتأتي إيجابية، ذلك أنّ رد الفعل الإيجابي هو نتيجة لاندماج وتظافر عاملي الإرادة والعقل.

فبالإرادة تتم عملية تكبيل الغرائز، وبالعقل يتم توجيهها بشكل سليم، أما ردّ الفعل السلبي فهو نتيجة لإطلاق العنان للغرائز والشهوات.

وعندما يُحكِّم العقل فإن التفضيل دائماً سيكون للإتيان بالفعل وليس لردوده، لأن القيام بالفعل الحسن يمثل عملاً هجومياً ودفاعياً في نفس الوقت، لأنه سيمنع الفعل القبيح من وقوعه كما أنه يقاوم الرغبة في الأعمال السيئة.. بينما رد الفعل هو عمل دفاعي فقط وهو متأخر من حيث الزمان والمكان عن الفعل نفسه، في حين أن إتيان الفعل الحسن هو سبق للحدث قبل وقوعه.

فحاول أن تكون صاحب فعل تسبق به الزمان، وفي ردات فعلك إملك نفسك، وتَصرَّف كمن يفكر ويقرر لا كمن يفكر له الآخرون ويقررون بدلاً عنه..

لقد كانت إحدى وسائل الاستعمار القديم في السيطرة على الشعوب المستضعفة هو إيقاع الاختلاف

بين فئات الشعب الواحد، وذلك عبر إثارة الحزازات فيما بينهم وتأجيج ردود الفعل المتطرفة بين المذاهب المختلفة.

وكان المستعمرون يدرسون أيضاً الحالات النفسية لرؤساء البلدان الفقيرة، لكي يعرفوا نقاط الضعف في شخصياتهم، حتى يتم التركيز عليها فيما بعد من أجل ابتزاز الرئيس ودولته عن طريق إثارات تؤدي به إلى ردات فعل معينة.

أما في الوقت الحاضر فإن دراسة ردود الأفعال هي من أهم العلوم التي ينبغي أن يبحثها أصحاب القرار السياسي، فمعرفة ردود أفعال رؤساء وزعماء العالم، خاصة الذين يتبعون النهج الاستبدادي، هي أهم الوسائل لتحليل مواقفهم واتخاذ القرار بشأنهم.

يقول أحد الكتّاب: «ان الفرد كحجر النار مليء بآلاف الشرر، ولكي تحصل على هذا الشرر يجب أن

تقدح الحجر بالحديد.. فليس الحجر هو الذي يعطي الشرر، إنما هي الصدمة التي يتلقاها الحجر».

وفعل الآخرين بالنسبة إلى من لا يستعمل عقله، ولا يلتزم بالمبادئ، مثل الصدمة بالنسبة إلى الحجر، إنها تقدح نيران الشرر في نفسه.

إن العقل عند الإبداع يجب أن يكون قادراً على بذل جهد يمكنه من التنظيم والتركيب والإبداع في قالب أفعال وأعمال.

والعبقرية هي في بذل الجهد والعمل قبل أن تكون إلهاماً. وكما يقول أديسون فإنّ العبقرية واحد بالمائة منها إلهام، وباقي التسعة والتسعين جهد وعرق جبين.

لا تكبِّلوا أذواق الناس

بقدر ما خلق الله عقولاً خلق أذواقاً، وبقدر ما خلق أذواقاً خلق رغبات وشهوات، وبعد ذلك خيّر الناس في انتخاب الطريق لتحقيق رغباتهم وشهواتهم، وبهذا الخيار امتاز الإنسان على الحيوانات.

فلا مناص من القبول باختلاف الأذواق بين الناس، ومن ثم الاختلاف في طلباتهم، فمن يريد أن ينسجم مع الطبيعة التي خلقها الله (عزّ وجلّ) فلابدّ أن يتقبل أذواق الناس المختلفة، وأطوارهم المتفاوتة في الحياة.

ومن السذاجة التصور بأن الحياة يمكن أن تتطور وتنمو في ظل توحيد الأذواق، وتكبيل الإرادة الإنسانية

بقرار حديدي يلغي كل الإرادات، إلّا إرادة صاحب القرار، فمن يريد تنظيم عملية السير في الشوارع، لا يحق له قطع كل الطرقات ليفرض على الناس السير في شارع واحد وبالاتجاه الذي يريد، فهذا النوع من التنظيم يقتل رغبات الناس ويمنع تحركهم.. بينما التنظيم السليم هو الذي يسمح بالمرور لكل الناس وفي كل الطرقات ولكن وفق قوانين معينة.

فمن يحدد للناس ماذا يشترون من السيارات، وأي لون يختارون، وفي أي شارع يسيرون.. قد ينجح في السيطرة عليهم، وتنظيم مساراتهم، ولكنه بالتأكيد سيفشل في تطوير حياتهم.

أما التنظيم الناجح فهو الذي يترك للناس حرية الاختيار، ضمن الإطار القانوني، حيث سيشعر الناس بالسعادة لأنهم سيحققون رغباتهم المتعددة وأذواقهم المختلفة، وسيشاركون مع الآخرين في تنظيم حياتهم.

وحرية الاختيار هذه هي التي ستمنح الناس الثقة بالطريق الذي انتخبوه.

وليست الحكومة الموفقة هي تلك التي تفرض ذوق السلطة على أذواق الناس، وإرادتها على إرادات الناس، وتوجهها على توجهات الناس، فأذواق الناس لا تنمحي، وإرادتهم لا يمكن تكبيلها.

والحكومة الرشيدة هي التي ترفع يدها عن عقول الناس، وتكتفي بتنظيم الطريق بين العقول والأذواق والرغبات المختلفة، وتعمل على تحقيق الانسجام فيما بين هذه الأذواق.

فكما أنه لكي لا تصطدم السيارات في الشوارع فإن الحل ليس أن نقطع الطرقات ونسمح بالمسير في شارع واحد، وإنما أن نضع عند كل تقاطع إشارات للمرور، وبذلك يمكننا تنظيم عملية السير ضمن التقاطعات، كذلك الأمر فيما يرتبط بالعقول والأذواق.

من أين تبدأ؟

كيف تبدأ عملك: هل تبدأه مما تملك؟ أم مما لا تملك؟

بعض الناس يريدون أن يبدأوا من حيث لا يملكون، وينتهي الحال بهم إلى الاستسلام للعجز، والرضا بالحرمان، والتقاعس عن السعي. فقائمة «ما لا نملك» من الأشياء مهما قصّرناها فهي طويلة وتحقيقها أمر عسير، إذا لم نقل إنه مستحيل.

فإذا قررت التخطيط لمستقبلك فلا تنظر إلى حالتك التعيسة ووضعك المتردي، فلو أردت تعداد ما ينقصك

من أمور فسوف تجد نفسك أنك لا تستطيع تحقيق أي شيء في الحياة، وهذا مثبّط للعزم، فمثلاً: إنك حينما تفكر في إقامة مشروع اقتصادي وتستعرض «ما لا تملكه» تجد إنك لا تملك الإمكانيات التي تؤهلك لإدارة موقع معيّن.. وليست لك المكانة الاجتماعية التي تتناسب مع طموحك.. وإنك لا تملك المال الكافي للبدء في المشروع..

إن التفكير بمثل ذلك لربما أدى بك إلى الإحباط بشكل كامل.

أمّا لو استعرضت «ما تملك» من طاقات قابلة للتنمية، فإنك ستجد إنك حققت ما كنت تصبو إليه، وامتلكت أشياء كثيرة لم تكن في البداية تملكها.

قد تقول: أنا من الذين لا أجد شيئاً حتى أبدأ به، والحال أن كل الناجحين يملكون أشياء كثيرة، فكيف

أستطيع أن أبدأ مما لا أملك، وفاقد الشيء لا يعطيه؟

والجواب: إنك تملك أشياء كثيرة فأنت أولاً: تملك نفسك، وثانياً: تملك طاقت غير محدودة أودعها الله فيك، وثالثاً: تملك بعضاً مما ورثته من آبائك وأجدادك من المعاني الأخلاقية وحتى المادية، وهذه كافية لكي تبدأ بداية قويّة..

إنّ مميزاتك الشخصية هي وحدها ثروة هائلة، فلو كنتَ من أصحاب الذكاء فإن ذلك وحده سيفتح لك طريق النجاح، أما لو كنتَ من أصحاب الذوق الرفيع فهناك أعمال كثيرة تتطلب هذه الصفة في مجال الفن والرسم وتصميم الملابس والديكورات، وأما لو كنت من ذوي القوة الجسمية فإن هناك أعمالاً أخرى لا يقوم بها إلّا أصحاب هذه القوة..

المهم هنا أن يكتشف المرء خصائصه المختلفة عن

بقية الناس، لكي يتمكن من التخطيط للإستفادة منها لتحقيق أهدافه الكبرى.

إن كثيرين بدأوا من الصفر ونجحوا، لا بمعنى أنهم بدأوا من لا شيء، بل بمعنى إنهم انطلقوا في أعمالهم من أشياء بسيطة يملكها الناس عادة ولكنهم لا يحسبون لها حساباً.

فالبعض انطلق في حياته من خلال طاقته الشخصية، فبدأ كعامل للتنظيفات، أو كخادم في فندق، أو كعامل لغسل الصحون في مطعم، تماماً كما فعل الرئيس الأمريكي الأسبق «جونسون» حيث بدأ حياته العملية في غسل الأطباق في أحد المطاعم، ولكنه لم يستسلم للضعف والعجز، فحمّل نفسه عناء الجد والمثابرة، حتى وصل إلى البيت الأبيض، فإذا لم يكن قد ملك نفسه لكان إلى آخر أيام حياته يعمل في غسل الصحون.

أنت أيضاً تملك رأس مال كبير، وهو عقلك، وإرادتك، وعضلاتك.. وتستطيع أن تبدأ منها جميعاً.. أما أن تقول بأني لا أملك منصباً لكي أبدأ به، فهل كل الذين ارتقوا المناصب، ولدوا وبأيديهم صكوكها؟

أم أنهم كانوا كغيرهم من الذين سعوا بما يملكون حتى وجدوا ما لا يملكون؟

حقاً إن النجاح بحاجة إلى أن يدعم المرء نفسه، ويفجر طاقاته الكامنة التي أودعها خالقها فيه.

يقول أحد الحكماء: «إن إيمان الفرد بقابليّاته، وقدرته على الوصول إلى ما يريد، يحقق أكبر خطوة نحو الهدف.. كما إنّ عدم إيمانه بتلك القابليات هو أكبر عقبة في طريق نجاحه».

يقول الشاعر:

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها

هواناً بها كانت على الناس أهونا

حقاً إن الإنسان يستطيع أن يفلح في أي مجال متى توفرت لديه رغبة غير محددة.

ولكن هذه الرغبة بحاجة إلى (الثقة) التي لا تترك مجالاً إلّا وتنجح فيه، وتقلل من أثر المصائب والملمات والمشاكل والعقبات.

في جميع الأحوال
كن متفائلاً

من التفاؤل ينبع الأمل، ومن الأمل يولد العمل، ومن العمل تنبعث الحياة.

فالتفاؤل شعاع من السماء يهبط على قلوب الأطفال فيدفعهم إلى التحرك واللعب.. وينـزل على أفئدة الرجال فيدفعهم إلى الجدّ والمثابرة.. ويدخل قلوب الأُمهات فيحملن، ويلدن، ويرضعن.. إنه بذرة الحياة في كل نشاط إنساني.

وصاحب التفاؤل مشرق القلب والعقل والضمير، لأنه يرى دائماً الجانب الجميل ونقاط الضوء والألوان البيضاء، وبهذه الروحية يعرف الطريق إلى امتلاك

الحقيقة، بينما المتشائم لا يرى إلّا الظلام الحالك، فلا يتقدّم إلى أمام، ولا يرى الحقائق.

وإذا أخذنا بنظر الاعتبار أن في كل مرافق الحياة جانبان: إيجابي وسلبي، فإن المتفائل يرى الأول فيكرّسه ويرى الثاني فيتجنبه، وحسب المثل الياباني: فإن المتفائل يرى حتى في الماء الآسن لوناً من الجمال، ونبعاً للمتعة والسعادة.. بينما المتشائم يرى حتى في الأزاهير والورود الباسمة لوناً من البكاء والنحيب.

فالمتفائل حينما يكون أمام كأس نصفه ماء فإنه ينظر إلى الجانب الممتلئ منه، بينما المتشائم يرى النصف الفارغ فقط.. والمتفائل يرى في نبتة الورد زهراً يحيط به بعض الشوك، بينما المتشائم لا يرى إلّا شوكاً يحيط بالزهرة.. والمتفائل يرى في ظلام الليل طلوع الفجر، والمتشائم يرى في ضوء النهار ظلام الليل.

إنّ النقطة السوداء على صفحة بيضاء هي مركز الرؤية

لدى المتشائم.. بينما الصفحة البيضاء هي مساحة مفتوحة لدى المتفائل.

والمتفائل يرى أيّ بصيص للضوء مهما كان قليلاً، بينما المتشائم حتى لو يرى الضوء فإنه يبحث عن الظلام الذي حوله.

والمتفائل إذا تعرَّض لعقبات في طريقه فإنه سيبحث عن مخرج منها.. بينما المتشائم يفترض عقبات لا دليل على وجودها.

ولأنّ الإنسان هو خلاصة أفكاره، ولأن أي إنجاز هو نتيجة للتصورات الداخلية التي تعتمل في هذا الإنسان، فإن التفاؤل يساوي النجاح في الحياة، والتشاؤم يساوي الفشل فيها.

إذن.. هناك عنصران يتحكّمان في نمط تفكير الإنسان ومواقفه!

أولهما: التفاؤل، ويقوده إلى بحر العمل والحيوية.

وثانيهما: التشاؤم، ويجرّه إلى ظلمات اليأس والقنوط، وهما كنهرين تجري بهما المياه باتجاهين متعاكسين؛ أحدهما يسير باتجاه القمم العالية، والآخر يهبط إلى درجات الانحطاط، والإنسان مخيّر في أي نهر يضع مركبه، وعندما يختار، فإن النهر سيتكفل بإيصاله إلى هدفه، فمن ركب نهر التفاؤل انفتح العالم أمامه، ومن سار في طريق التشاؤم انغلقت عليه منافذ الحياة وتصور أنها النهاية المظلمة.

النهاية أمرها بيد الله تعالى، ومادام في الإنسان رمق من الحياة، فإن الأبواب تبقى مشرعة أمامه، فلماذا يتصور المتشائم إذن أنّ الحياة أوصدت أبوابها عليه؟

الخلل ليس أمراً حتمياً في الحياة، ولا في الظروف، وإنما في النفس التي تنظر إلى الأشياء بطريقة سلبية وتفسّر الحوادث بتشاؤم، وبطبيعة الحال فإن هذه السلبية تنعكس على تصرفات الإنسان وأفعاله وقراراته.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن في كل موقف نواجهه، وكل شخص نلتقيه، وكل خطوة نخطوها، وكل مكان نذهب إليه، وكل حفلة نحضرها، وكل اقتراح نقدمه، وكل عمل نقدم عليه، وكل مؤتمر نشارك فيه.. في كل ذلك هناك مزيج من أمور سلبية وأخرى إيجابية، أي من المفيد والضار، والخير والشر، والمضيء والمظلم، والطيّب والخبيث؛ عند ذاك ينبغي أن نأخذ الأمر الحسن والمفيد والخير والمضيء من بينها.. ونترك أضدادها، وبذلك نعيش حياة ملؤها السعادة والهناء.

إنّ توجيه النفس إلى التفاؤل أو التشاؤم هو بيدك أنت وفي قبضتك، فأنت الذي توجّه نظرك إلى الجانب المشرق من أمور الحياة أو إلى الجانب المعتّم منه، تماماً كما لو دخلت غرفةً ووجدت على طرف منها قد أُلصقت صور مناظر جميلة وعلى طرف آخر صور مقززة للنفس، فإن توجيه النظر إلى أيٍّ منهما إنما هو بيدك أنت.

ومعلوم أنك حينما تشاهد المناظر الخلّابة فإن نفسك، ستنشرح وقلبك ينفتح، وعقلك يستنير..

ولكن حينما توجِّه نظرك نحو المناظر البشعة فإن نفسك ستنقبض، وقلبك يضيق.

لقد كان التحكم بالنظر ملئ إرادتك، فأنت الذي وجّهت نظراتك، ولكن نتائج ذلك كانت خارجة عن إرادتك. أي أنّ المقدمات كانت بيدك أما نتائجها فلا تكون كذلك.

إن طريقة الأطفال في تعاملهم مع الأشياء غالباً ما تكون أقرب إلى الصواب، ألا ترى كيف أنّ أحدهم إذا دخل إلى مكان فإنه سيتوجّه بشكل غريزي إلى ما يمكن أن يلعب معه، ويتسلى به، ويرتاح إليه، وفي المقابل فإنه سيتخلى عما لا يحقق له هذا الهدف.

حاول أن تتعلم هذا الدرس من الأطفال، فإذا دخلت إلى مكانٍ ما، وجّه نظرك إلى الجانب المشرق

والجميل فسرعان ما تتمتع به، وترتاح إليه، فمنطقة الشروق في النفس البشرية هي التي تتحول إلى طاقة متراكمة لتحقيق أفضل الأعمال وأبدعها.

وإذا كنّا نجد صعوبة في تطبيق هذا الأسلوب في الحياة، فعلينا ـ على الأقل ـ أن نتظاهر بالنجاح والسعادة على طريقة «تفأّلوا بالخير تجدوه» أو على طريقة ذلك الحكيم الزنجي حين سُئل: لماذا تبدو عليك السعادة دائماً؟

فأجاب: «إن لم أكن سعيداً، فسأكون أكثر شقاءً ممّا أنا عليه الآن..».

أدرس خطواتك إلى هدفك

لبلوغ قمة الجبل لابدّ أن تكون الخطوة التالية متقدمة على سابقتها، وفي النزول منها لابدّ أن يتحقق العكس.

ولإقامة بناية شامخة ينبغي أن نبني اللبنة الجديدة فوق اللبنة السابقة، بينما لحفر البئر ينبغي العكس.. وهذا يعني أن المسير إلى الهدف ليس دائماً باتجاه الأعلى، ولا باتجاه الأسفل، وإنما الذي يحدد الاتجاه الذي تسير فيه هو الهدف الذي تسعى للوصول إليه.

من هنا لابدّ أن نعرف ما الذي نريد تحقيقه، فهذه هي المسألة الرئيسية التي على أساسها تتحدد بقية الأمور، والذي لا يعرف ماذا يريد أن يحقق من هدف.. فكيف يحقق ما لا يعرفه ولا يريده؟!.

إذ لا شك أن فاقد الهدف يفقد الإرادة أيضاً، وفاقد الإرادة لا يمتلك خطة في الحياة، وفاقد الخطة سيكون بالتأكيد جزءاً من خطط الآخرين وآلة بأيديهم، ولن يتحكم بعد ذلك بمصيره، حيث أن غيره هو الذي ينوب عنه في قراراته عنه في اتخاذ القرار، وليس له إلّا أن يرضخ لتلك القرارات، حسنة كانت أم سيئة، وغالباً ما تكون تلك القرارات في غير مصلحته.

إنّ فقدان الهدف يعني فقدان محور الحياة، ومن دون المحور يكون وضع الإنسان مشتتاً في داخل نفسه، وفي تصرفاته، وفي علاقاته مع الآخرين، مثلما الأمر في الذرّة عندما تفقد نواتها، فتضطرب الإلكترونات حينئذ في حركتها، وتضل مسيرها فتصطدم وتفجّر بقية الذرّات.

إنّ الضياع في حركة الحياة تساوي الانفجار في حركة الزمن، والأمم الضائعة ستصطدم يوماً ما بالأمم الأخرى عندما سيقع الانفجار وتذهب تلك الأمم في الريح، لا من منقذ ومن لا معين.

في مثل هذه الأمم قد تكون الحركة سريعة والنشاط عالياً، ولكن من دون تحقيق أي تقدم، لأنّ النشاط والحركة لا تنفعان أمة لا تعرف أهدافها في الحياة، بل قد يكون النشاط المتزايد سبباً لانهيار تلك الأمة.

من هنا كان تحديد الهدف أمراً أساسياً في حياة الإنسان والأمة، والانشغال عن ذلك خطأ فظيع، لأنه سيفوّت الفرصة على جميع الفرص على صاحبها.

فَمَنْ أنت؟ وماذا تريد؟ أمران مترابطان، بل لا تستطيع أن تعرف من أنت، إذا لم تعرف ماذا تريد.. ومن دون معرفة ماذا تريد فلست أنت نفسك؟

لقد خلق الله الإنسان قادراً على صنع التاريخ، وذلك بشرط أن يحدّد أهدافه أولاً، وإلّا فإنه إذا فقد الهدف فإنه سيصبح حينئذ منفعلاً بالحياة لا فاعلاً فيها.

إنّ الفشل إنما يصيب الإنسان بسبب عدم التخطيط أو الغفلة، أو البعد عن المنهج العلمي المبني على

البصيرة، ولكي يتجنب الفشل في الحياة، ويحقق أهدافه، لابدّ له من مرشد يرشده في كل خطوة من خطواته. لذلك جاءت الروايات مؤكدة على مسألة الاستشارة، ففي أي خطوة يستبد فيها المرء في عمله، فإن الهلاك هو مصيره.

وفي قصة موسى عليه السلام التي ذكرها الله سبحانه في القرآن الكريم مع أحد عباد الله، مثال واضح على ضرورة إتخاذ الحكيم مرشداً وإطاعة توجيهاته.

يقول القرآن الكريم: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾[1].

وباختصار يمكن القول أن النجاح يتوقف على الخطوات التالية:

أولاً: تحديد الهدف النهائي.

---

(١) سورة الكهف، الآيتان: ٦٥ ـ ٦٦.

ثانياً: تحديد الخطوات اللازمة لتحقيق ذلك الهدف.

ثالثاً: الاستشارة في جميع الأمور.

رابعاً: دراسة خطوات العمل بالقياس إلى الهدف.

هناك.. من كان معك؟

هلّا رجعت بفكرك إلى الوراء حيث بداياتك الأُولى في الطريق إلى الحياة؟

هلّا تصورت الرحلة الطويلة الشاقة التي قطعتها وأنت كائن صغير لا تُرى بالعين؟

هلّا تصورت نفسك عندما كنت مجرد حيمن ثم تحوّلت إلى نطفة؟

وهل تصورت الأخطار التي واجهتك قبل أن تنتقل من ظهر أبيك إلى رحم أُمك؟

أتعرف إنك كنت واحداً من أربعمائة مليون نطفة قُذف بها إلى داخل الرحم فبقيت أنت وذهب الـ (٣٩٩)

مليون و (٩٩٩) ألف و (٩٩٩) من رفاقك الباقين إلى حيث الفناء؟

أفلم يكن ممكناً أن تكون أنت واحداً من أولئك الذين انتهى بهم الأمر للفناء؟

ثم هل فكّرت بمراحل الحياة الصعبة التي قطعتَها وأنت تنتقل من حالة إلى أخرى، أي من النطفة إلى العلقة، ومن العلقة إلى المضغة، ومنها إلى جنين مقوّس الظهر في الرحم؟

هل تدري كيف بدأت أعضاء جسمك تتكون الواحدة تلو الأخرى دون أن تشعر ماذا يحدث فيك، أو يعرف الآخرون بذلك، حتى أُمك التي حملتك لم تعرف بوجودك إلّا بعد حين، وكنت في ظلمات ثلاث، بعيداً عن الأخطار وبعيد المنال عن أيدي البشر، ومع ذلك كان الطعام يأتيك رغداً وينمو جسمك مرحلة إثر مرحلة، قبل أن ينفخ الله فيك الروح، ويؤذن بك للانتقال من عالم الأرحام إلى عالم الحياة؟

هلّا تأملت هذا الخلق العجيب، والصنع الفريد الذي هو أنت؟

وهل دققت النظر في الخليّة كيف تنقسم على نفسها، ليصبح كل جزء منها خليّة كاملة، وكل خليّة جديدة تؤدي عملاً يختلف عن باقي الخلايا في الوقت الذي يكمّل عملها؟

هلّا تصورت يوماً كيف تمت ولادتك عندما كان عليك أن تقطع النفق الصغير جداً والخطير جداً من تجويف الرحم الضيق، إلى فسحة الدنيا الواسعة، بينما الأخطار تحيط بك من كل جانب؟

أتدري كم من المواليد مثلك يهلكون يومياً وهم يقطعون عدة سنتيمترات في هذا النفق؟ وكم منهم يُشوّهون، أو يعاقون بسبب الأخطار التي تواجههم في لحظات الولادة؟!

أمّا أنت فقد تجاوزت كل تلك الأخطار!

يا تُرى، مَن كان معك هناك يدفع عنك المخاطر؟

ثم مَن علّمك كيف تمتص الحليب؟

ومَن الذي أوجد هذا الحليب في ثدي أُمك؟

ومَن الذي صنع خلايا جسمك الداخلية؟

ومَن أجرى الدم في عروقك؟

ومَن الذي حرّك لأوّل مرة عضلة قلبك؟

ومَن جعل التوتر في أعصابك؟

ومَن أخذ بيدك للطريق؟

ومَن كان يهديك إلى سواء السبيل؟

ثم مَن كان يحفظك وأنت بعدُ طفلٌ صغير لا تعي ولا تفهم، وتسوقك الغريزة بعيداً عن السلامة، فيا تُرى من كان معك يدفع عنك البلايا ويرشدك إلى الطريق؟

مَن غير الله تعالى وملائكته الموكَّلين بك كان معك هنالك، فهل من المعقول أن تظن بأنّ الذي خلقك، وفطرك، وسوّاك فعل ذلك عبثاً؟

يقول الحديث الشريف: «رحم الله مَن عرف مِن أين؟ وفي أين؟ وإلى أين؟»[1] إنها مسيرة واحدة تبتدئ من الموت وتنتهي بالموت، يقول ربنا عزّ وجلّ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١﴾[2].

إنك الآن في منتصف الطريق، قطعت أشواطاً كثيرة، وبقيت عليك أشواط أخرى ينبغي عليك قطعها، وهي محفوفة بمخاطر ليست أقل مما واجهتك في الماضي، لكن الفرق بينهما هو أنك في الوقت الحاضر مختار في عملك وتعي ما يجري حولك، وأنّ ما تواجهه من أخطار هي من صنع يدك، وأمر مستقبلك - إن خيراً وإن شرّاً - بيدك.

واعلم إنه مهما طال عمرك فإنك ستموت، وتفارق أحباءك وأصحابك، وعندما تحين ساعة موتك في اللحظة المحددة لك سلفاً فسوف تنتقل مجبراً من عالم

---

(١) شرح رسالة الحقوق، ص٨٨.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ١.

الدنيا إلى عالم الآخرة، فتموت هنا لتولد هناك. كما «متّ» في رحم أُمك، ووُلدت في دنياك.

إنك في منتصف طريق يمتد من ألوف السنين، ويستمر إلى الأبد، أي من عالم «الذرّ» حيث خلق الله الأرواح قبل الأبدان بألفي عام، إلى البرزخ والقيامة. وأنت، بعدُ، صائر إمّا إلى جنة لا شقاء فيها، أو إلى نار لا سعادة فيها، والذي خلقك وأنشأك قد أرسل لك رسله وأنزل معهم كتبه، ليهدوك السبيل ويرشدوك لما فيه خيرك وصلاحك، والخيار متروك لك في انتخاب مصيرك.

فأنت تموت ثم تعود إلى الحياة، وربّك كما كان معك يحميك من الأخطار بعد أن خلقك، هو نفسه الذي يعيدك ويحاسبك.

يقول الدكتور: ا.ج. كرونين: «كنتُ ملحداً عندما كنت أدرس الطب في جامعة لندن، وعندما كنت أقف

أمام جسم إنساني في غرفة التشريح أحس بأنني أمام جهاز شديد التعقيد، منظم جداً، ومدهش إلى درجة يثير الذهول لدقته المتناهية، وفي الوقت نفسه أخذت أفكر في أمر الله، وكانت إبتسامة الاستخفاف والسخرية ترتسم على وجهي، وكنت أرى في ذلك كله اسطورة قديمة بالية. وكان يشاركني في هذا الشعور أكثر طلاب الجامعة..

«وبقيتُ هكذا إلى أن أصبحتُ طبيباً وسافرت إلى منطقة المناجم بجنوب (ويلز) وصرت أجدني أنفذ في مملكة الروح الإنسانية. لقد شاهدت معجزة ميلاد إنسان، وجلست إلى الموتى واستمعت في الظلام وسمعت رفرفة أجنحة الموت، فتخلّى عنّي الغرور، فصرت أؤمن بالله».

«ورأيت العمال كلهم يؤمنون بالله، ولا يمضي أسبوع واحد دون أن يقع هناك ما يؤيد إيمانهم بالله وتوكلهم عليه».

«ولن أنسَ ذلك اليوم ما حييت، فقد حدث إنفجار مروع أدى إلى سقوط المنجم على ١٤ عاملاً، وبقي هؤلاء العمال مدفونين تحت التراب خمسة أيام كاملة، وظلت القرية تصلّي لله من أجلهم، وأخيراً إستطاع رجال الإسعاف أن يشقوا الطريق إلى المنكوبين واستمعوا إلى دعاء خافت ينبعث من الأنقاض: إنه صوت العمّال، يترنمون بأنشودة «يا أرحم الراحمين». أخرج العمال أحياء من تحت الانقاض، والتف حولهم ألوف العمال وهم يرددون: يا أرحم الراحمين»[1].

تُرى، من دفع تلك الأخطار عن هؤلاء غير الذي دفع الأخطار عنهم عندما كانوا في بطون أُمهاتهم؟

---

(١) مجلة المختار من ريدرز دايجست، يناير ١٩٥٦.

ماذا يعني وجود الله؟

الله (تبارك وتعالى) موجود.. ذلك أمر لا ريب فيه. آمن به مَن آمن، وكفر به مَن كفر.

تُرى، ماذا يعني وجوده بالنسبة إلينا؟

هل ذلك لمجرد تفسير فلسفي لخلق الكون وحدوثه؟

أم أن وجود الله (عزّ وعلا) يعني شيئاً آخر، له تأثيره في حياتنا اليومية، وطريقة تعاملنا مع ما يجري حولنا ويحدث؟

الحقيقة، إن المؤمنين بالله تعالى هم على أصناف:

صنف يؤمن بوجوده من دون أن يتحمل مسؤولية إيمانه، لأن أمثاله لم يجدوا الرابط بين اعتقادهم بوجود

الله وحياتهم اليومية، ويتصور هؤلاء أنه تبارك وتعالى خلق الخلق ثم تركهم وشأنهم، ليفعلوا ما يحلو لهم، وليصنعوا ما يشاؤون، دون رقابة أو توجيه من السماء.

وصنف آخر يرى أن الإيمان بوجود الله تعالى يدعونا إلى بث المحبة بين الناس، فالله سبحانه في نظر هؤلاء هو العاشق الذي أحب الخلق فَخَلَقه، ثم إنه لفرط محبته للخلق سيمنحهم عطاءه الموفور، وبعد الموت يذهب كل إنسان إليه مرحوماً مغفوراً له، حتى وإن ارتكب من الذنوب والآثام ما تنهدّ له الجبال الراسيات.

وهذه عقيدة أغلب المسيحيين في العالم، حيث يتلخص الإيمان بالله عندهم في: الإيمان بوجوده، ومحبته، والأمل في الحياة الخالدة مع السيد المسيح عليه السلام في السماء من دون حساب أو كتاب.

وصنف آخر يرى أن الله (عزّ وجلّ) لم يخلق الخلق عبثاً، وقد قال (جلّ وعلا) في القرآن الكريم: ﴿وَمَا

خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[1]، فالحق هنا له حدود معينة، وخارج هذه الحدود يكون كل شيء باطلاً.

ثم أن الدنيا التي حولنا خليط من الحق والباطل ويتمثلان في طريقين متناقضين، فالدنيا مليئة بالخير والشر، والصلاح والفساد، وبين كل هذه المسميات صراع دائم، والإنسان يقف ضمن حدود اختياراته وسط هذه المتناقضات باحثاً عن مسؤوليته التاريخية، ووظيفته الإنسانية في اختيار الطريق المناسب.

وحرية الاختيار هنا لا تعني الحرية المطلقة، بل تعني الحرية المحدودة التي يترتب عليها الجزاء، حيث يكون المرء مسؤولاً عن كل فعل يقوم به، وكل موقف يتخذه، وبما أنه مكلّف بنصرة الحق في ذاته وفي حياته، فهو محاسَب على خذلانه، لأن في خذلان الحق نصرة للباطل.

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٣.

من هنا يظهر أن المؤمنين بوجود الله تعالى ينقسمون إلى فئتين:

الفئة الأُولى: التي تؤمن بخلق الكون من قبل الله سبحانه، غير أنها لا ترى أن له «الأمر» كما له «الخلق»، فالإنسان لذلك مخيّر في طريقة تسيير الحياة كيفما أراد، وليس للباري دخل في أموره، أو أحكام في شؤونه، وأنه لا يُجازى بالسيّئ من أفعاله سوى بالغفران والرحمة الإلهيّة.

الفئة الثانية: وهي التي ترى بأن خلق الكون هو من تجلّيات الحكمة الإلهيّة، والحكمة بطبيعتها لا تتفق مع العبثية بل تناقضها، فلو سلّمنا بحكمة الله (عزّ وجلّ) فلابدّ أن نرفض العبثية في الكون، ونؤمن بأن هناك أهدافاً عظيمة وراء هذا الخلق.

والهدفية في الكون لا تعني أبداً أن لله (عزّ وجلّ) مصلحة في خلقه، لأن الله أعزُّ، وأغنى، وأكبر، من أن

يحتاج إلى عباده، ولكنه عزّ وجلّ أراد أن يُعرَف بين عباده فخلق الخلق ليعرفوه ويعبدوه فجعل الدنيا دار بلاء وابتلاء، وأنزل الكتب، وبعث الرسل، وخلق الظلمة والنور، ومنح الإنسان حرية الاختيار بين الحق والباطل، وعرّفه الخير والشر ليبتليه ويمتحنه ويحاسبه ويجازيه، فمن اختار الحق فهو يُحشر بعد الموت في الجنة الخالدة، ومن اختار الباطل فهو يستحق نار جهنم خالداً فيها.

والمعركة الكبرى للأنبياء لا تنتهي بالإيمان بوجود الله (عزّ وجلّ) بل إنها تستمر مع الذين آمنوا به واعترفوا بوجوده، لكنهم أشركوا به فيما بعد، أي مع الذين لا يعملون بمنهج الأنبياء ولا يسيرون بطريقتهم في الحياة، والالتزام بأخلاقهم، وما جاءوا به في جميع مناحي الحياة. بالإضافة إلى الإيمان بالله وحبّه تعالى باعتبار أن ذلك جزء من ضمير الإنسان ووجدانه.

يقول أحمد أمين في كتابه: (التكامل في الإسلام):

«قابلتُ ذات مرة رجلاً في شمال انجلترا، كان يفخر طول حياته بأنه رجل ملحد! وحرّم ابنته الوحيدة من الميراث، لأنها تزوجت معلماً شديد الإيمان بالله. وفي نهاية حياته أصيب بمرض عضال. فحاول جهده أن يبرر موقفه من زوج ابنته.. وكان زوج ابنته يستدرجه بين الحين والحين إلى مناقشات تنتهي عادة بقول الرجل الملحد هذا: «إنني لست نادماً على شيء، فما زلت أكفر بالله».

وذات يوم ردت عليه ابنته قائلة: «ولكن الله يا أبي يؤمن بك!».

وأمام هذه العبارة سقطت آخر مقاومة لهذا الرجل الملحد. «فمهما نفكر ونفعل فنحن من صنع الله، وكلمة واحدة تكفي لشكره وحمده».

حقاً إن للإيمان بالله مظاهر شتى، منها ما يرتبط بالنفس مثل السعي لتزكيتها وإصلاحها، ومنها ما يرتبط

بالأمور الأخلاقية كالبرّ بالوالدين، وصلة الرحم، والعمل الصالح، واجتناب الفسوق والخيانة، والإنفاق والسعي في عمل الخير وإصلاح ذات البين.. يقول القرآن الكريم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾[1].

ومنها ما يرتبط بمسألة الحق والباطل، وضرورة نصرة الحق، ومواجهة الباطل. كل ذلك من متطلبات الإيمان بوجود الله. وهذا هو معنى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾. ومعنى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[2].

---

(١) سورة المؤمنون، الآيتان: ٦٠ ـ ٦١.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

الندم قبل الخطيئة

كما ينتفض الضمير عندما يرتكب الإنسان الجريمة، كذلك ينتفض حينما يقدم على معصية الله، فماذا يجب أن نفعل حيال ذلك؟

هنالك ثلاثة مواقف مختلفة تجاه انتفاضة الضمير، هي:

أولاً: أن لا يلتفت صاحبه إلى ضميره مهما انتفض ضد الخطأ.

ثانياً: أن يشهّر المذنب بنفسه، وأن يعترف بكل ما اقترف أمام كل برٍّ وفاجر.

ثالثاً: أن يتآكل من الداخل، ويحاكم نفسه.

ترى ما هو الصحيح من هذه المواقف؟

والجواب: إن أول ما يجب علينا فعله إزاء المعصية هو الاعتراف بالخطيئة ولكن بشرط أن يكون الاعتراف صامتاً، فالإشهار ليس مطلوباً ولا محبذاً لأنه يشيع الفاحشة بين الناس، فماذا ينفع الإعلان عن الخطيئة مادام الشخص، لم يفعل شيئاً لتلافيها؟

إن الاعتراف أمام الناس بالذنب قد يسبب ضرراً للمذنب، لأن هناك العديد من ضعاف النفوس الذين يستغلون سقطات الناس للترويج ضدهم وفضحهم، بالإضافة إلى أنه يزيل قبح الخطايا. والاستثناء الوحيد هنا هو الاعتراف أمام من يمكن أن يساعد المذنب على تجاوز الخطيئة وتلافيها فهو قد يكون أمراً جيداً.

مطلوب إذن أن يقول صاحب الخطيئة مع نفسه: لقد أخطأت، لأن أفضل الطرق لتصحيح الخطأ هو

الاعتراف به أمام النفس بشجاعة وصراحة، وأن يقرر في داخله أن لا يكرره فيما بعد.

إن الإذعان القلبي لحقيقة الخطأ يدفع إلى تحريك الإرادة الذاتية لمحاولة تصحيحه، واستفزاز الإرادة يعتبر بمثابة الخطوة الأُولى في مواجهة الذنب.

فلا التآكل من الداخل أمر نافع، ولا عدم الالتفات إلى الأخطاء، ولا التشهير بالنفس، وإنما الطريق السليم هو اعترافنا أمام أنفسنا وأمام الله بما ارتكبنا من أخطاء ثم نطلب من الله (عزّ وجلّ) أن يساعدنا لتجاوز هذه الأخطاء وتلافيها، ومن ثم التصميم على عدم تكرار الخطايا.

فكلنا يندم على ارتكاب الخطيئة، ويعاتب نفسه بسبب تقريع الضمير، لكن لا أحد يستطيع أن يعيد عقارب الساعة إلى الوراء، ليصحح موقفه ويغيّر ما ارتكبه. ولهذا فمن الأفضل هو ترك الذنب قبل ارتكابه،

فلو تعلّمنا أن نندم على الخطيئة قبل أن نرتكبها فسوف نجنّب أنفسنا أمرين:

الأول: الخطيئة وما يترتب عليها.

الثاني: الندم الذي لا يترتب عليه أي شيء.

لقد جاء في الحديث الشريف: «شتان ما بين عملين: عمل تذهب لذّته وتبقى تبعته، وعمل تذهب مؤونته ويبقى أجره»[1].

إن لحظةً من التفكير في عواقب الذنب وقد ارتُكِب وانتهت لذته قبل ارتكابه، يستطيع أن يبعد عنا آلاماً مادية مبرحة وتقريعاً جارحاً من الضمير.

لقد قرأتُ قصة امرأة أصيبت بمرض الإيدز نتيجة ممارسة جنسية غير مشروعة قبل الزواج، واستمر فيروس الإيدز يعمل في جسمها فترة طويلة من الزمن، ثم بدأت آثار ذلك المرض تظهر للعيان.. وماتت بعد معاناةٍ طويلة

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧١، ص ١٨٩.

من المرض، ثم أورثت المرض ذاته إلى طفلها الذي ولد وهو يحمل الفيروس وعاش سبع سنوات ثم مات هو الآخر.

قلت لنفسي لو أنّ هذه المرأة فكّرت للحظات قبل أن تمارس الجنس الحرام، أفلم تكن قد جنّبت نفسها وولدها وعائلتها من مصيبة كبرى ألا وهي خسارة الحياة والموت في غير موقعه؟

إذن تعالوا نتعلّم كيف نندم على الذنب قبل ارتكابه.. فهذا هو الندم المفيد الذي يدفعنا إلى الصلاح والصراط المستقيم، ويجنبنا الآلام، خاصة وإننا لا يمكن أن نركن إلى وجداننا وضميرنا لأن الضمير، قد يصاب بالانحراف من وقت إلى آخر، حسب النيات والأعمال، فمن يرتكب الذنوب باستمرار، قد تتبدل القيم عنده، فبعد أن كان يرى السرقة مثلاً رذيلة، يراها بعد ممارستها مجرد شطارة..

وعندما كان يرى الوجدان السرقة رذيلة، يكون الحاكم هو العقل الطبيعي، وبعد ممارسة السرقة طويلاً ينسحب العقل، وتحلّ محله النفس الأمّارة بالسوء فيرى الرذيلة مكسباً وفضيلة.

كيف نعبّد طريقنا إلى النجاح؟

قال لي: هل النجاح أمر ممكن للجميع، أم هو صدفة، يحصل عليها البعض ويُحرم منه آخرون؟

قلت: إنه متوفر للجميع، ولكن بشروط.

قال: وما هي تلك الشروط؟

قلت: إنها أربعة:

أولاً: تحديد الهدف:

فمن لا يعمل لهدف معيّن فهو كالعصفور التائه ينتقل بين الأغصان ويستنزف طاقاته، ولكنه لا يصل إلى مكان.

إنّ تحديد الأهداف يمثّل نصف الطريق إلى النجاح،

وإلّا فَمَن لم يحدّد بعدُ ميناء الوصول فإلى أين يريد أن يبحر في عرض البحر؟

ثانياً: تحديد الأولويات:

إنّ كثيرين يفشلون ليس لأنهم لا يملكون هدفاً، ولا لأنهم يفتقدون الوسائل اللازمة، بل لأنهم لا يحددون أولوياتهم. فالبعض عندما يفتح عينه في الصباح لا يسأل نفسه: ما هو أهمّ شيء يجب عليَّ أن أنجزه الآن؟ ولذلك فهو ينشغل بالتوافه وينسى الأمور المهمة. وعندما يغلق عينيه في المساء يكون قد فعل الشيء الكثير، ولكن ليس في المجال الصحيح.

إنّ على من يريد النجاح أن يهتم بالأهم ثم المهمّ، بل يضع خطة تفصيلية لذلك، فيحدد الأمر الأول والثاني والثالث وهكذا. ثم ينفِّذ خطته بكل دقة وإتقان، وبذلك فهو يستخدم عقله في التفكير الصحيح، وحزمه في تنفيذ ما قرره.

هنالك مثل غربي يقول: إن كان عليك أن تبلع كل يوم ضفدعة، ومجموعة من الأعمال الأخرى، فابدأ ببلع الضفدعة، أي ابدأ بالأصعب، فالأقل صعوبة، فالسهل فالأسهل، ولو كان عليك أن تبلع ضفدعتين فابدأ بأكبرهما وأبشعهما.

ثالثاً: الإنجاز السريع:

بأن تباشر بالعمل بلا بطأ أو تأخير، فعندما تحدّد هدفك، وتضع قائمة للأولويات فلا يجوز أن تنتظر الزمان. لأنه ليس في مصلحتك، فزمان إنجاز كل عمل هو وقت إنجازه، وليس له أي زمان خاص.

إن التأخير في إنجاز الأعمال يساوي الفشل فيها.

وهنا يُقال إن من اخترع جهاز الهاتف، والذي أصبح بسبب ذلك مليونيراً وأُدرج اسمه في قائمة المخترعين، إنما سجل هذا الاختراع باسمه بسبب سرعته في الإنجاز.

بينما كان هنالك مخترع ثاني أقدم على اختراع الهاتف أيضاً، لكنه تأخّر في تسجيله باسمه مدّة ساعة واحدة فقط. فهو خسر مرّتين: مرّة عندما لم يسجل باسمه الهاتف. ومرّة حينما خسر ما ترتب على ذلك من مصالح مادية كثيرة.

والحق إنّ دقيقة واحدة يمكن أن تغيّر كل المعادلات، كما أنّ لحظة واحدة يمكن أن تقلّب كل الموازين.

وعلينا أن نعمل بالحديث الشريف الذي يقول: «لا تؤجّل عمل اليوم لغد»، إن للغد عمله الخاص به. والوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك.

وصدق الإمام علي عليه السلام الذي قال: «إن في التأخير آفات، وإضاعة الفرصة غصّة»[1].

رابعاً: الصداقة مع الناس وكسب تعاونهم:

إنّ ربّنا جعل يده «مع الجماعة» وليس مع الأفراد.

---

(١) نهج البلاغة، حكمة ١١٣.

ففي هذه الحياة النجاح إمّا نصيب المجموعات، وإمّا هو نصيب مَن يجمع قوى الناس إلى قوته، ويكسب أكبر قدر ممكن من الناس، ويدفعهم إلى تبنّي مشاريعه..

فكّر حتى يؤلمك التفكير

كتب أحد المفكرين البريطانيين كتاباً يُضرب به المثل في النجاح، وأوصى الشباب في كتابه بالتفكير، وقال: «فكّر، ثم فكّر، حتى يؤلمك التفكير».

والحق أن التفكير كما قال الإمام الحسنعليه السلام: «أبو كل خيرٍ وأُمّه».

* * *

وقد تسأل: في أي شيء أفكر؟

والجواب: أن تفكر في نفسك، وفي محيطك، وفي عملك، وفي نقاط ضعفك، وفي نقاط قوّتك، وفي إمكانية تطوير مواهبك، وفي السبل الكفيلة

لنجاحك، وفي تطوير أعمالك وترميم إنجازاتك.

والحق إنه لا يكفي أن يكون هدفنا مقدساً لكي يتحقق، بل لابدّ أن يكون طريقنا سالكاً إليه. وهذا الأمر يتطلب تنظيم الأعمال، والتفكير المستمر فيها، وتطويرها.

وليس التقدم الذي حققه اليابانيون يعود إلى شيء كما يعود إلى تفكيرهم المستمر، ووضع البدائل المختلفة التي يهتمون بها، واختيار الأفضل في كل مشروع.

لقد كتب مؤسس شركة «سوني» اليابانية والتي يُضرب بها المثال للنجاح، كتب يقول: كنت أفكر في صنع جهاز تسجيل ينطق فقط ولا يسجّل. أي لا يمكن تسجيل أي شيء فيه، وإنما يمكن فقط الاستماع إلى الأشرطة المسجّلة مسبقاً.

فجمعت عدداً من المخططين وقلت لهم: «أريد جهاز تسجيل، لا يسجّل».

فضحكوا من كلامي، وقالوا: «إن فلسفة جهاز التسجيل قائمة على التسجيل والحفظ، وليس على القراءة وحدها».

ثم بعد شهر جاء الخبراء بأربعمائة مخطط مختلف، فاخترت منها أربعة، وقد تم تصنيعها.

وفي العام الأول لم يُجْنِ أي جهاز منها أرباحاً، لكنني ربحت في العام الثاني ثمانية ملايين دولار في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها.

وتلك هي مسجلات «وُك مَن» walk man.

لقد كان هذا الجهاز نتاج لحظة من التفكير. وهذا يعني أن شيئاً يبدو في الظاهر أنه فاشل قد يكون ناجحاً، إذا أضفنا بعض التفكير إليه.

وحتى في الأشياء التي نؤمن بنجاحها تماماً، فإن التفكير قادر على أن يوصلنا إلى ما هو أفضل منها.

من هنا فإن إلغاء التفكير يعني إلغاء التطوّر.

ألا ترى، كيف أنّ الفرق بين الشعوب المتقدمة والمتخلّفة يكمن في أنّ الشعوب المتقدمة تعتمد على التفكير المستمر، بينما الشعوب المتخلّفة تلغي التفكير؟

إن الصناعات الناجحة تدخل في سوق المنافسة، وأصحابها يعلمون أن التطور أمر يومي وأن هنالك في كل يوم بضاعة جديدة، وتحسينات جديدة على البضاعات القديمة.

وهكذا فإنه لابدّ من تجديد كل فكرة، وتحسين كل بضاعة، ولن يحدث ذلك إلّا من خلال التفكير.

بل أستطيع القول إنّ علينا أن نجدد التفكير في تفكيرنا. وأن نطوّر أسلوبنا في كل مجالات الحياة، بما فيها مجالات التفكير ذاتها.

بالإضافة إلى أنه لابدّ أن نستفيد من خبرات الآخرين وأفكارهم، فالتفكير قادر حتى على تحويل الفشل إلى نجاح، وذلك من خلال أن نعتبر ممّا حدث، وأن نأخذ

الدرس من نتاج فكر الآخرين، ونضعه موضع التنفيذ فيما بعد.

لقد زوَّد الله الإنسان بالعقل لينطلق في الحياة، وينجز فيها، ويحل المشاكل ويفتح الطريق، وكل ذلك ممكن من خلال ما يمكن تسميته بتفعيل العقل، أي من خلال التفكير.

التعادلية

ما الفرق بين العاقل والمجنون؟

قد تقول: إن تصرفات العاقل منضبطة، بينما تصرّفات المجنون منفلتة لا ضابط لها. فالعقل يطلب من صاحبه أن يضبط حركاته وسكناته. وأن يميّز بين مواقع اللين والشدّة. وأن يتجنب الخطأ ويعمل الصح.

هذا بالضبط هو ما نسميه التعادلية في الحياة وهي من أهم صفات الإنسان.

أما المدى الذي تشمله التعادلية فهي كل مجالات العمل.

فلابدّ أن يعرف الإنسان مثلاً متى يقاوم، ومتى

يتراجع؟ ومتى يهاجم، ومتى يدافع؟ ومتى يرتاح، ومتى ينشط؟ ومتى يتحدث، ومتى يصمت؟ ويكون في ذلك متعادلاً.

لقد حدث للفرقة الألمانية رقم (٢٠٠) التي كانت من أفضل، وأقوى فرق الجيش النازي أن تعرضت إلى ضغط عسكري هائل.

فطلب قادة الجيش من هتلر السماح لهم بالتراجع لتخفيف الضغط عليهم. لكنه رفض، ودعاهم إلى الصمود.

وحاول قائد الفرقة عدة مرات أن يحمل هتلر على السماح لهم بالتراجع، إلّا أنه بقي على عناده، وطالبهم بالصمود.

وفي النهاية جاء الخبر المؤسف، فقد أبيد نصف الفرقة تماماً.

فقال هتلر: سنحارب بالنصف الآخر، ونصمد.

ثم جاء خبر إبادة النصف الآخر أيضاً.

فقال هتلر: سنعيد بناء الفرقة (٢٠٠)!

لكن كيف يمكن إعادة من ماتوا، وقُتلوا، وأبيدوا تماماً؟!

المهم لو كان هتلر ملتزماً بالتعادلية في تصرّفاته لما هُزم في الحرب العالمية الثانية بعد أن كان يملك أقوى الجيوش!

وتأسيساً على مبدأ التعادلية فإنه ينبغي على العاملين أن يضعوا خططهم للنجاح آخذين بعين الاعتبار احتمال الفشل، كما لابدّ أن يلتزموا الوسطية في قراراتهم ومواقفهم.

إن التعادلية في الحقيقة تشبه ما يعمله كل من يقف على رجليه، حيث أنه لا يميل باتجاه اليمين، ولا اليسار، ولا الأمام، ولا الخلف، إلّا بمقدار ما يستطيع أن يحافظ على توازنه، وإلّا سقط.

وكما في الفرد، كذلك في الجماعات.. وكما في الوقوف على القدمين، كذلك في مختلف المواقف. إن من يريد أن ينجح في الحياة فلابدّ أن يجعل التعادلية منهجه في العمل. ويكون معتدلاً في مواقفه جميعاً، مثلاً الاعتدال بين الصرف للموارد، وبين الجمع لها.

وبين اللّين في المواقف، وبين الشدّة فيها.

وبين العمل الدائم، وبين الرّاحة فيه.

وبين الأخذ، وبين العطاء.

فحتّى في الكرم فإنه يجب أن يكون الإنسان معتدلاً فيه، كما يقول ربّنا تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾[١].

وهكذا فإن التعادلية يجب أن تضبط حياة الإنسان في كل جوانبها حتى تنجح، فحتى مع العائلة، فإن على كل فرد فيها أن يلتزم بالتعادلية بين الاهتمام بالعائلة، وبين الاهتمام بالناس.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٤.

فليس ناجحاً من يفشل في عائلته وإن نجح في السوق. وليس ناجحاً في العائلة إيضاً من يفشل في السوق.

وهكذا في جميع الأمور، خاصة في القضايا المصيرية كالحرب والسّلام وأمثالهما.



الفهرس